

دكتور يوسف القرضاوى

مقدمة فنية للماملين للإسلام

(٣)

موقف الإسلام

من الإلهام .. والكشف .. والرؤى
ومن التمايم .. والكهانة .. والرقى

الناشر

مكتبة وهيب

لاشارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

موقف الإسلام

من الإلهام .. والكشف .. والرؤى
ومن التأمل .. والكهانة .. والرفق

البركوزي يوسف البرقناوي

نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام

(٣)

موقف الإسلام

من الإلهام .. والكشف .. والرؤى
ومن التماثل .. والكهانة .. والرقى

الناشر

مكتبة وهيب

٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

جميع الحقوق محفوظة

من الدستور الإلهي

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .

(الأنفال : ٢٩)

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(العنكبوت : ٦٩)

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

(البقرة : ١١١ ، والنمل : ٦٤)

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

(الأنعام : ١٤٨)

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ .

(النجم : ٢٨)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شَاخٍ ﴾ .

(سبا : ٤٦)

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ، كما ينبغي لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه . .
والصلاة والسلام على أكمل الخلق إيماناً ، وأرجحهم عند الله ميزاناً ،
وأنصعهم في الحق بياناً ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على دربه إلى يوم
الدين .

أما بعد . .

فهذا هو الجزء الثالث من أجزاء هذه السلسلة « نحو وحدة فكرية للعاملين
للإسلام » ، وهي السلسلة التي تتمحور حول « الأصول العشرين » للإمام
الشهيد حسن البنا رضى الله عنه ، وقد حرر منها قبل ذلك جزءان : الأول
عن « شمول الإسلام » ، والثاني عن « المرجعية العليا في الإسلام » ، وهي
من غير شك للمصدرين المعصومين : القرآن ، والسنة ، وقد تضمن هذا
الجزء « ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير » .

وها أنا أقدم لك - أخى القارئ المسلم - الجزء الثالث ، وهو يتضمن
شرح أصليين من الأصول العشرين ضممتها في كتاب واحد ، وهما :
الأصل الثالث المكمل للأصل الثانى ، والمتفرع عنه ، وفيه بيان الموقف من
الإلهام والكشف والرؤى ، وهل تُعتبر حُجَّة في الأحكام الشرعية أو لا تعتبر
أصلاً ؟ وهل يُعتد بها فى أى أمر من أمور الحياة أو لا يُعتد بها قط ؟ وقد
ذكرنا هنا موقف الغلاة فى الإثبات ، والغلاة فى النفى ، وموقف الربانيين
المعتدلين من أئمة أهل السنة والجماعة ، ورددنا على المُفرطين والمُفرطين معاً .

والأصل الرابع . . وهو الذى يتضمن حماية حمى التوحيد ، ورعاية سنن الله فى الخلق وفى الاجتماع البشرى ، واحترام نظام الأسباب والمسببات فى التداوى أو المعرفة ، ورفض المظاهر الشركية من تعليق التمايم ، والعلاج بالرقى غير المشروعة ، وادعاء الكهانة ومعرفة الغيب . . . ومقاومة ذلك كله باعتباره منكراً من المنكرات التى يجب أن تُغيّر باليد أو باللسان أو بالقلب ، وذلك أضعف الإيمان .

أرجو أن يجد القارئ الكريم فى هذا الجزء ما وجدته فى أخويه السابقين مما يقوى وحدة الاتجاه ، وتقارب الفكر ، لدى العاملين للإسلام ، من أفراد وجماعات .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

الدوحة : فى ذى الحجة ١٤١٤ هـ - الموافق (مايو ١٩٩٤ م)

الفقير إلى عفوره
يوسف القرضاوى

الأصل الثالث

موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى .. وهل يؤخذ منها حكم شرعى ؟

« وللإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة ، والمجاهدة : نور وحلاوة ، يقذفها الله فى قلب مَنْ شاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطير والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه » .

حسن البنا

الأصل الثالث

موقع الإلهام والكشف والرؤى من الدين

يقول الإمام حسن البنا فى رسالة « التعاليم » :

« وللإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة ، والمجاهدة : نور وحلاوة ، يقذفها الله فى قلب مَنْ شاء من عباده . ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه » .

هذا الأصل تأكيد وتتميم للأصل السابق الذى حدّد مصادر المعرفة للأحكام الشرعية فى القرآن والسنة ، ويبيّن موقف الحركة الإسلامية بصراحة من المفرطين الحرفيين الظاهريين الذين ينكرون أى أثر لعمق الإيمان وصحة العبادة ، وصدق المجاهدة ، فى تنوير العقل وهداية القلب ، ومن المفرطين من المتصوفة الذين يجعلون أذواقهم ومواجيدهم ، وخواطر نفوسهم ، وما يُلهِمُونَهُ فى اليقظة ، أو يرونه فى النوم ، دليلاً يحتجون به على أعمالهم وأقوالهم كأنه الوحي المعصوم ، بل قد يجعلون هذا الكشف أو الإلهام ، أو الرؤيا ، حُجَّةً على الشرع نفسه ، وهذا ضلال مبین ، وخطأ كبير .

● حقائق ثلاث يتضمنها هذا الأصل :

ومن هنا جاء هذا الأصل يتضمن حقائق ثلاثاً :

الحقيقة الأولى : الاعتراف بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة فى تصفية النفس وإشراقها ، وصدق فراستها ، وهدايتها سبُل الخير ، وأنها قد تُلهِمُ الرشد والصواب فى يقظتها ، وتصدق رؤياها فى منامها .

الحقيقة الثانية : أن هذا الاعتراف لا يعنى أن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى من أدلة الأحكام الشرعية ، حتى يُحتج بها على صحة الاعتقاد ، أو سداد النظر ، أو استقامة العمل ، ولهذا نفى ذلك فى صراحة ووضوح .

الحقيقة الثالثة : أن الإلهام ولواحقه لا تُعتبر - فى غير الأحكام الشرعية طبعاً - إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

* *

● أثر الإيمان والعبادة والمجاهدة فى النفس :

أما الحقيقة الأولى وهى الاعتراف بأن للإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة ، والمجاهدة للنفس ، نوراً وحلاوة يقذفها الله فى قلب مَنْ يشاء من عباده ، فذلك ما دلّت عليه النصوص ، ودلّت عليه الوقائع والاستقراء .

أما النصوص فهى كثيرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ (١) ، أى نوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، وتخرجون به من الشبهات .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) دلّت على أن للمجاهدة فى الله أثرها فى هداية الإنسان إلى سبل الله ، وهى سبل الحق والسداد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٣) ، والمخرج يشمل كل ما يُخلص الإنسان من المآرق والمضايق ، ومنها مآرق الحيرة والشبهة ، والرزق الموعود ، كما يشمل الرزق المادى ، يشمل الرزق المعنوى من الهداية والتوفيق إلى صواب الفكر ، واستقامة السلوك .

وفى القرآن الكريم كثير من النصوص التى تدل على أن الاهتمام بآيات الله الكونية ، وآياته التنزيلية ، مقصور على أهل التقوى ، الذين أنار الله بها بصائرهم ، كما

(١) الأنفال : ٢٩ (٢) العنكبوت : ٦٩ (٣) الطلاق : ٢ - ٣

في مطلع سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ،
﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

وفي آيات الكون يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وسياتى مزيد لبيان هذه الحقيقة فيما يأتى (٤) ، وحسبنا أن نذكر هنا
الحديث الصحيح : « ثلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أن يكون الله
ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره
أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (٥) .

وأما الحقيقة الثانية ، والحقيقة الثالثة - اللتان تضمنهما هذا الأصل -
فستحدث عنهما بالتفصيل في الصفحات التالية .



(١) البقرة : ٢ (٢) آل عمران : ١٣٨ (٣) يونس : ٦

(٤) انظر : كلام الغزالي ص ٩٦ ومابعدها من هذا الكتاب .

(٥) متفق عليه من حديث أنس ، انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ،
حديث (٢٦) .

الإلهام هل هو حُجَّةٌ في الأحكام الشرعية ؟

هذا موضوع يهتم به علماء العقيدة والتوحيد ، وهم الذين يُعرفون باسم « المتكلمين » ، لأنه يتصل بطرائق العلم التى يتوصل بها إلى المعرفة بحقائق الدين الكبرى من الألوهية والنبوة والمعاد .

ورجال العقيدة يلتقون هنا مع رجال الفلسفة ، فى بحثهم حول نظرية المعرفة ، وهل هناك طريق للمعرفة غير العقل والحس ؟ وهى أحد الموضوعات الثلاثة الرئيسية التى تدور حولها الفلسفة قديمها ووسيطها وحديثها ، وهى : الوجود ، والمعرفة ، والقيم العليا (الحق والخير والجمال) .

وكذلك يهتم به علماء الأصول ، لأنه يتعلق بتحديد مصادر المعرفة للأحكام الشرعية ، وهل هناك مصدر لها غير الكتاب والسنة ، وما دلا عليه من الإجماع والقياس ؟

ويهتم به أيضاً علماء التصوف ، بل هو أخص شىء بهم ، وهم أصحابه وفرسانه ، وهم الذين يُنقل عنهم أنهم يعتمدونه مصدراً للتحسين والتقبيح ؟

ولهذا كان تحرير هذا الأمر من المهمات العلمية ، حتى لا تضيق الحقيقة بين الغُلاة فى النفى والغُلاة فى الإثبات ، كأكثر الأمور فى عالم الفكر ، يفرط فيها أناس ويُفرط فيها آخرون .

وقبل أن نتحدث عن الآراء والاتجاهات فى هذا الموضوع ، لا بد لنا أن نحدد « المفاهيم » ، فإن الحكم على الشىء فرع عن تصويره .

● ما الإلهام :

فى القرآن الكريم وردت المادة مرة واحدة ، بصيغة الفعل الماضى ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (١) ،

(١) الشمس : ٧ - ٨

وفسر ذلك « معجم ألفاظ القرآن الكريم » الصادر عن مجمع اللغة العربية بقوله : ألقى فيها إحساساً تُفرّق به بين الضلال والهدى ، ولعل ذلك ما يُعرف في عصرنا بـ « الضمير » .

وما ذكره المعجم مأخوذ مما روى عن مفسري السلف مثل مجاهد وغيره في معنى الآية .

وقال في القاموس المحيط : ألهمه الله خيراً : لقّنه إياه .

وقال شارحه الزبيدي في تاج العروس : الإلهام : ما يُلقى في الرُّوع بطريق الفيض ، ويختص بما من جهة الله والملا الأعلى ، ويقال : إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر ، يخص به الله مَنْ يشاء من عباده (١) .

وفي لسان العرب : الإلهام أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك ، وهو نوع من الوحي ، يخص الله به مَنْ يشاء من عباده (٢) .

وفي شرح « العقائد النسفية » لسعد الدين التفتازاني : الإلهام إلقاء شيء في القلب بطريق الفيض (٣) .

وفي « التعريفات » للشريف الجرجاني : الإلهام : ما يُلقى في الرُّوع بطريق الفيض ، وقيل : الإلهام ما وقع من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حُجّة ، والفرق بينه وبين الإعلام : أن الإلهام أخص من الإعلام ؛ لأنه قد يكون بطريق الكسب ، وقد يكون بطريق التنبيه (٤) .

(١) تاج العروس ، مادة « لهم » .

(٢) مادة « لهم » من اللسان ، والتعريف مقتبس من « النهاية » لابن الأثير ، كما سيأتي بعد سطور .

(٣) شرح العقائد النسفية مع حواشيها ، ص ٤١ ، طبع مصطفى الحلبي .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ٥٧ ، طبع عالم الكتب ، بيروت ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة .

وفى « النهاية » لابن الأثير فى مادة « لهم » ذكر حديث : « اللّهم إني أسألك رحمة من عندك تلهمنى بها رشدى » (١) ، ثم قال : الإلهام : أن يلقى الله فى النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي يخص الله به مَنْ يشاء من عباده (٢) .

وفى مادة « حدّث » ، ذكر حديث : « قد كان فى الأمم مُحدّثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر بن الخطّاب » (٣) ، قال : جاء فى الحديث تفسيره أنهم الملهمون ، والملمهم هو الذى يلقى فى نفسه الشئ ، فيخبر به حدساً وفراسة وهو نوع يختص به الله مَنْ يشاء من عباده الذين اصطفى ، مثل عمر ، كأنهم حدّثوا بشئ فقالوه (٤) .

وعرّفه العلامة أبو زيد الدبوسى من فقهاء الحنفية ، بقوله : هو ما حرّك القلب لعلم يدعو إلى العمل به من غير استدلال (٥) .

وكثيراً ما يعبر الصوفية عن « الإلهام » بـ « الكشف » لأنه يكشف لهم عن أمور مغيبة عما سواهم ، فهى ظاهرة لديهم ، خافية على غيرهم ، وستأتى مناقشتهم .

وهذه التعريفات كلها تدور حول معنى أساسى ، وهو أن الإلهام إلقاء معنى أو فكرة أو خبر أو حقيقة ، فى النفس أو القلب أو الرُوع - سمه ما شئت - بطريق الفيض ، بمعنى أن يخلق الله فيه علماً ضرورياً لا يملك

(١) من حديث رواه الترمذى والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس ، وقال الترمذى : غريب ، وذكره فى ضعيف الجامع الصغير .

(٢) النهاية : ٢٨٢/٤

(٣) متفق عليه وسيأتى .

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر : ٣٥٠/١ ، طبع عيسى الحلبي .

(٥) نقله الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : ٤٣/١٦ ، طبع مصطفى الحلبي .

دفعه . أى ليس بطريق التعلم والاكساب المعهود ، بل هو يُفاض على النفس فيضاً ، بغير اختيارها ولا إرادتها ، سواء سعت إليه سعياً عن طريق الرياضة الروحية وتفريغ القلب من كل شيء ، كما سيأتى ذلك بعد فى كلام الإمام الغزالى ، أم أفيض ذلك عليها كرامة من الله لها ، وخرقاً للعوائد من أجلها ، وإن لم تتعمد السعى إليه .

ومن شأن هذا العلم الضرورى - إذا ألقى فى القلب - أن يُحرّك إلى العمل ، ويبعث على الفعل أو الترك ، كما جاء فى بعض التعريفات ، فهو نتيجة وثمره له .

والتعريفات التى ذكرت أن الإلهام نوع من الوحي يُقصد بها : أنها نوع من الوحي بمعناه اللغوى ، وهو الإعلام بخفاء وسرعة ، أو أنه نوع من الوحي بالنسبة للأنبياء ، فهو أحد طرق الوحي المتضمنة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَبِشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ، فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ (١) .

فقوله : ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ يشمل ما كان عن طريق الإلهام والنفث فى الرُوع فى اليقظة ، وما كان عن طريق الرؤيا المنامية ، فرؤيا الأنبياء وحي .

وهذا الإلهام أو الكشف هو ضرب من المعرفة الروحية المباشرة ، التى عرفت بها بعض المدارس الفلسفية قديماً وحديثاً ، وهى المعرفة عن طريق « الخدس » أو « البصيرة » ، وفى الفلسفة القديمة عرفت بذلك « الغنوصية » .

وفى الفلسفة الحديثة عُرِف فلاسفة أشهرهم الفيلسوف الفرنسى « هنرى . برجسون » الذى أطلق عليه : فيلسوف الروح فى القرن العشرين .

* *

(١) الشورى : ٥١

● الإلهام والتحديث :

ويُسأل هنا : هل الإلهام هو نفس التحديث الذى جاء فى الحديث الصحيح : « إنه كان قبلكم محدثون » ، أو هو غيره ، أو بينهما عموم وخصوص ؟

الذى نقلناه من كلام صاحب « النهاية » يدل على أنهما بمعنى واحد ، ومثل ذلك ما ذكره شيخ الإسلام إسماعيل الهروى صاحب « منازل السائرين إلى مقامات : إياك نعبد وإياك نستعين » ، فهو لم يُفرِّق بينهما ، وذهب إلى أنهما شئ واحد ، وقد جاء فى عدة روايات تفسير التحديث بالإلهام .

ولكن شارح « المنازل » الإمام ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » خالف الهروى ، ورأى أن بين الإلهام والتحديث عموماً وخصوصاً ، فالتحديث أخص ، والإلهام أعم ، فكل تحديث إلهام ، وليس كل إلهام تحديثاً .

قال : التحديث أخص من الإلهام ، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم ، فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان . فأما التحديث : فالنبي ﷺ ، قال فيه : « إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر » يعنى من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص ، وهو الوحي إلى غير الأنبياء ، إما من المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ (٢) ، وإما من غير المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٣) ، فهذا كله وحي إلهام (٤) .



(٢) المائدة : ١١١

(٤) مدارج السالكين : ١ / ٤٤ ، ٤٥

(١) القصص : ٧

(٣) النحل : ٦٨

● الإلهام والفراصة :

وعما له صلة بالإلهام : الفراصة ، فما معنى الفراصة ؟ وما العلاقة بينها وبين الإلهام ؟

يقول الراغب في كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » :

وأما الفراصة : فالاستدلال بهيئات الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله وورذائله ، وربما يقال : هي صناعة صيَّادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله ، وقد نبَّه الله تعالى على صدقها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٢) ، وبقوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (٣) .

والضرب الثانى من الفراصة : يكون بصناعة متعلِّمة ، وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك وكان ذا فهم ثاقب ، قوى فى الفراصة ، وقد عُمِلَ فى ذلك كتب ، فمن تتبع الصحيح منها طلع منها على صدق ما ضمنوه . والفراصة ضرب من الظن ، وقد سئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما ، فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراصة بنور الرب تعالى ، وكل من قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَتَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُّوحِي ﴾ (٤) ، كان ممن وُصِفَ بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (٥) وكان ذلك النور شاهداً منه أصاب فيما حكم به .

(٣) محمد : ٣٠

(٢) البقرة : ٢٧٣

(١) الحجر : ٧٥

(٥) هود : ١٧

(٤) الحجر : ٢٩

ومن الفراسة : علم الرؤيا ، وقد عظم الله أمرها في جميع الكتب
المنزلة (١) .

والراغب هنا لا يفرق بين الإلهام والفراسة والتحديث .

وأما الهروى في « المنازل » ، فقد جعل مقام الإلهام فوق مقام الفراسة ،
لأن الفراسة ربما وقعت نادرة ، واستصعبت على صاحبها وقتاً ، واستعصت
عليه ، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد .

وناقش ابن القيم الهروى في ذلك فقال :

« وأما جعله فوق مقام الفراسة : فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت
نادرة كما تقدم ، والنادر لا حكم له ، وربما استعصت على صاحبها
واستصعبت عليه فلم تطاوعه ، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد ، يعنى في
مقام القرب والحضور .

والتحقيق في هذا : أن كل واحد من « الفراسة » و « الإلهام » ينقسم إلى
عام وخاص ، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد قد
يقع كثيراً ، وخاصه قد يقع نادراً ، ولكن الفرق الصحيح : أن الفراسة قد
تتعلق بنوع كسب وتحصيل ، وأما الإلهام فهو موهبة مجردة ، لا تُنال بكسب
البتة » (٢) .

* *

● مواقف العلماء من الإلهام :

وإذا عرفنا حقيقة الإلهام ، بقى علينا أن نعرف مواقف أهل العلم المسلمين
- من متكلمين وأصوليين وفقهاء ومُحدثين - من الإلهام ، ومدى حجيته
أو مصدريته للمعرفة ، ومدى الثقة بما يأتي عن طريقه من معارف وأفكار .

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الاصفهاني ص ١٨٦ - ١٨٨ ، تحقيق
د . أبو اليزيد العجمي ، نشر دار الصحوة بالقاهرة . (٢) مدارج السالكين : ٤٥ / ١

ونستطيع أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاثة :

- ١ - موقف النفاة الرافضين للإلهام .
- ٢ - موقف المثبتين القائلين بحجية الإلهام .
- ٣ - موقف المتوسطين بين الفريقين .

● موقف النفاة المنكرين للإلهام :

ومن الإنصاف أن أبادر هنا فأقول : إنى لم أجد - من العلماء المعبرين لدى الأمة - من ينفى الإلهام نفياً كلياً وينكره إنكاراً مطلقاً .

بل النفى منصب على الاعتداد به أصلاً ودليلاً شرعياً ، واعتباره حجة مستقلة ، بحيث يُستدل به على الحق والصواب فى باب المعارف والاعتقادات ، وعلى مشروعية الفعل أو الترك فى باب التعبدات والمعاملات .

وذكر العلامة النسفى فى « عقائده » المشهورة لدى أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية ، أن أهل الحق حصروا أسباب العلم اليقينى للخلق فى ثلاثة :

- ١ - الخواس السليمة .
- ٢ - والخبر الصادق .
- ٣ - والعقل .

✽ ويريد بالخواس السليمة الخمس المعروفة .

✽ وأما الخبر الصادق فهو نوعان : الخبر المتواتر وهو الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب ، وخبر الرسول المؤيد بالمعجزة .

✽ والعقل منه ما هو ضرورى وما هو نظرى .

ثم قال النسفى : « والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق » .

وقال الشارح التفتازانى : « الظاهر أنه أراد أن الإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامة الخلق ، ويصلح للإلزام على الغير ، وإلا فلا شك أنه قد يحصل به العلم » (١) .

(١) العقائد النسفية بشرحها وحواشيها ، ص ٤١ ، طبع مصطفى الحلبي .

ونقل الشوكاني عن القفال قوله : « لو ثبتت العلوم بالإلهام لم يكن للنظر معنى ، ونسأل القائل بهذا عن دليله ، فإن احتج بغير الإلهام فهو ناقض قوله « أهـ .

قال الشوكاني : ويُجاب عن هذا الكلام بأن مُدَّعى الإلهام لا يحصر الأدلة في الإلهام ، حتى يكون استدلاله بالإلهام مناقضاً لقوله . نعم إن استدل على إثبات الإلهام بالإلهام كان ذلك مصادرة على المطلوب ، لأنه استدل على محل النزاع بمحل النزاع .

ثم على تقدير الاستدلال بثبوت الإلهام بمثل ما تقدّم من الأدلة ، من أين لنا أن دعوى هذا الفرد لحصول الإلهام له صحيحة ؟! (١) .

ونقل في « مسلم الثبوت » عن بعض العلماء ، واختاره محقق الحنفية العلامة الكمال بن الهمام : أن الإلهام ليس بحُجَّةً مطلقاً ، لا في حق الملهم نفسه ، ولا في حق غيره ، وعلل ذلك بانعدام ما يوجب نسبته إلى الله تعالى (٢) ، أى ليس هناك ما يدل على أنه من عند الله تعالى . فربما غلط أو توهم ، أو خال فتخيّل ، ولا معصوم بعد رسول الله ﷺ .

وذكر صاحب « مسلم الثبوت » قولاً آخر نُسب إلى عامة العلماء ، وهو أن الإلهام حُجَّةٌ على الملهم فقط دون غيره ، وعلّل ذلك شارحه بقوله : « لعل وجهه أن إلهامهم (أى الأولياء) ، وإن كان حُجَّةً قاطعة ، إلا أنه لا يجب عليهم دعوة الخلق إليه ، من حيث إنه إلهام ، ولا على الخلق تصديقهم ، والحُجَّةُ فرع التصديق » (٣) .

(١) إرشاد الفحول ص ٢٤٩

(٢) مسلم الثبوت مع شرحه فواتح الرحموت ، المطبوع مع المستصفى للغزالي :

٣٧١/٢

(٣) المصدر نفسه .

وسياتى مزيد مناقشة لذلك .

ويبدو أن موقف النفاة الرافضين للإلهام هنا ، كان رد فعل لموقف المتصوفة الذين غلوا فى إثبات الإلهام ، وزعموا أن له حجة ثابتة ، ومصدرية مستقلة للأحكام الشرعية ، فنفى ذلك العلماء المتمسكون بالكتاب والسنة ، وأنكروه .

✽

● المغالون فى إثبات الإلهام وحجته واعتباره :

أما الفئة الثانية فهى التى غلت فى إثبات الإلهام ، وفيما له من حجة شرعية : علمية وعملية ، بحيث يُستدل به على سلامة الاعتقاد ، وسداد القول ، وصحة العمل ، واستقامة المنهج .

وهؤلاء هم المنحرفون من دعاة التصوف أو أدعيائه على الحقيقة ، وليس كل الصوفية معهم فى ذلك ، فإن الصوفية الأوائل ملتزمون بالكتاب والسنة ، كما سنبين بعد ، وإنما هؤلاء قوم لم يتحصنوا بمحكمات الشرع ، فمالَت بهم رياح البدع القولية والعملية يميناً وشمالاً ، فاعتمدوا على التشابهات ، وأعرضوا عن المحكمات ، وهذا أصل الزيغ والخلو .

✽

● الإلهام ليس بحُجَّة شرعية :

وهؤلاء قد رد عليهم الأصوليون بأن الإلهام ليس بحُجَّة ، سواء فى باب المعارف والاعتقادات ، أم باب الأعمال والتعبادات ، وتظاهر على ذلك علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه ، وردوا على من زعم أنه حُجَّة ودليل شرعى ، وأبطلوا كل ما استدلوا به .

أما فى باب المعرفة والاعتقاد فيذكر « النفسى » فى « عقائده » المشهورة والمعتمدة لدى المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية ، وهى من الكتب التى كانت - ولا تزال - تدرس بالأزهر : أن أسباب العلم للخلق ثلاثة :

الحواس السليمة ، والعقل ، والخبر الصادق ، ومنه خبر الرسول المؤيد بالمعجزة .

وبعد أن حصر أسباب العلم اليقيني في هذه الثلاثة قال : « والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق » (١) .

وأما في باب الأعمال والتعبادات ، فيقول الإمام أبو زيد الدبوسي من أئمة الحنفية : الذي عليه الجمهور : أن الإلهام لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحُجَج كلها ، في باب المباح ، فقيد جواز العمل به بقيدتين :

الأول : ألا يوجد أي دليل شرعي في المسألة ، لا كتاب ولا سُنَّة ولا إجماع ولا قياس، ولا غيرها من الأدلة المختلف فيها .

الثاني : أن يكون ذلك في باب المباح ، أما الإيجاب أو الاستحباب ، أو التحريم أو الكراهة ، فلا يعتمد فيها على إلهام ملهم ، ولا كشف ولى ، بل لا بد من دليل شرعي معتمد .

وسنفصل ذلك بأدلة بعد بيان موقف الربانيين المحققين من أئمة أهل السُنَّة .



● موقف الربانيين المعتدلين من علماء السُنَّة :

بعد أن بينا موقف النفاة المنكرين للإلهام ، من علماء الأصولين : أصول الدين وأصول الفقه ، وبيننا في مقابلتهم موقف المغالين في إثبات الإلهام والمعظمين له ، وما أضفوا عليه من حجية وقدسية ، ترتب عليها ما ذكرناه من نتائج وآثار في مجالات العقيدة والفكر والعبادة والسلوك .

يتبغى علينا هنا أن نبين موقف المتوسطين المعتدلين من ربانيي هذه الأمة الذين أشار إليهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢) .

(١) العقائد النسفية مع شرحها ص ٤١ ، طبع مصطفى الحلبي .

(٢) آل عمران : ٧٩

وقد تبين موقف هؤلاء من خلال ردهم على الغلاة والمنحرفين من المتصوفة ،
فيما ذكرناه في المباحث السابقة .

ولكن لا بأس من بيان موقفهم استقلالاً ، ليزداد تأصلاً واتضحاً .

إن هؤلاء الربانيين من دعاة « الوسطية الإسلامية » هم الذين جمعوا بين
النورين : نور العقل ونور القلب ، نور العلم ونور الإيمان ، نور الفطرة
ونور النبوة ، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول ، ووفقوا بين النصوص
الجزئية والمقاصد الكلية ، وردوا الفروع إلى الأصول ، والمنتشابهات إلى
المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، فأثبتوا الإلهام والكشف والتحديث
والفراصة والرؤى الصادقة بشروطها وفي حدودها ، وأقاموا الوزن بالقسط ولم
يُخسروا الميزان ، ولم يطغوا فيه ، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد ،
واعتصموا من الدين بحبل متين : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

إن موقف أهل التوسط والاعتدال من محققى علماء السُّنة ، هو الذى
يُعبّر بحق عن وسطية المنهج الإسلامى ، ووسطية الأمة الإسلامية .

فهم لا يغلِقون باباً من أبواب المعرفة والوعى ، فتحة الله لبعض الناس ،
فى بعض الأوقات ، بجوار البابين الآخرين ، من أبواب المعرفة ، وهما
اللذان لهما صفة العموم والدوام .

أعنى : باب الحواس ، وخصوصاً السمع والبصر ، وباب العقل ، وقد
يُعبّر عنه فى القرآن الكريم بالفؤاد أو القلب ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) ،
ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً

(١) آل عمران : ١٠١

(٢) الإسراء : ٣٦

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ، فجعل هذه الثلاثة منافذ المعرفة للإنسان : السمع والأبصار للمعرفة الحسية ، والأفئدة للمعرفة العقلية .

والمعرفة « السمعية » تدخل فيها العلوم النقلية ، ومنها : علوم الدين ، فهي علوم سمعية ، وإن نقلت عن طريق القلم والكتاب .

والمعرفة « البصرية » تدخل فيها العلوم التجريبية ، لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والقياس ، وأساسها البصر والمشاهدة .

والمعرفة « الفؤادية » أو « القلبية » يدخل فيها المعرفة العقلية الخالصة ، عن طريق النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال ، كما يمكن أن يدخل فيها المعرفة المباشرة عن طريق البصيرة والحدس والإلهام ، وهو ما يسمونه « المعرفة الروحية » .

ذلك أن كلمة « الفؤاد » أو « القلب » ليست مرادفة لكلمة « العقل » ، بل هي أعم وأشمل ، فقد يراد منها تلك اللطيفة المدركة العاقلة المفكرة ، ولذا توصف أحياناً بالعقل أو الفقه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (٢) .

وقوله في أهل النار : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (٣) .

وقد يراد من كلمة الفؤاد أو القلب ما يُطلق عليه الآن اسم « الروح » أو « الضمير » أو « البصيرة » أو نحو ذلك من الكلمات التي تُعبر عن نوع من الوعي المباشر دون الأدوات التي يستخدمها العقل المنطقي في تحصيل معرفته .

ومهما يكن من تفسيرنا لكلمة « الأفئدة » أو « القلوب » فإن مما لا ريب فيه

(٣) الأعراف : ١٧٩

(٢) الحج : ٤٦

(١) النحل : ٧٨

أن فيها نوراً فطرياً أودعه الله فيها ، يزداد بالإيمان والمجاهدة والتقوى ، فيكون كما قال الله تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (١) .

كما أن الكفر والجهود والغفلة واتباع الهوى ، يعطل هذه الأجهزة المعرفية لدى الإنسان ، ويخرب صلاحيتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) .

وقال عن بعض الكفار الذى نزل بهم عقاب الله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ (٤) .

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتموا بالكتاب والسنة بسد باب الإلهام والكشف ونور البصيرة ، وإنما أرادوا أن يُقيّدوه بالأصول والضوابط التى تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه .

وإذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا إنتاج العقل بقواعد « المنطق » الذى عرفوه بأنه « آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر » ، وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف .

وإذا كان الشرعيون قد وفقهم الله لوضع علم « أصول الفقه » لضبط

(٢) الأعراف : ١٧٩

(١) النور : ٣٥

(٤) الجاثية : ٢٣

(٣) الأحقاف : ٢٦

الاستدلال فيما فيه نص ، وفيما لا نص فيه ، وأسسوا بذلك علماً عظيماً لم يُعرف مثله في حضارة من الحضارات ، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكري الإسلامي .

إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يُترك الأمر فوضى في موضوع الكشف والإلهام ، وندع الباب مفتوحاً على مصراعيه ، لكل من هبّ ودبّ ، ممن تخيل فخال ، أو من لا يميز بين إلهام الملك ونفث الشيطان ، أو من ادعى الوصول ولم يرع الأصول ، من كل دجال يشتري الدنيا بالدين ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ؟

هذا ما يراه الربانيون من علماء السُّنة ، فهم لا ينكرون أن يقذف الله في قلب عبد من عباده نوراً يكشف له بعض المستورات والحقائق ، ويهديه إلى الصواب في بعض المواقف والمضايق ، بدون اكتساب ولا استدلال ، بل هبة من الله تعالى ، وإلهاماً منه .

ومن آمن بقدرة الله تعالى على كل شيء ، وآمن بالطاقة الروحية الهائلة في الإنسان ، وآمن بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في تفجير هذه الطاقة الكامنة ، لم يستبعد أن يقع الكشف والإلهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين ، في بعض الأحوال والأوقات ، تفضلاً منه وكرماً : ﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ (١) .

* *

● تحرير موضع النزاع :

فما هو إذن موضع الخلاف بينهم وبين من ذكرنا من المتصوفة أصحاب الكشف والإلهام ؟

(١) آل عمران : ٧٣ - ٧٤

هنا يلزمنا تحرير موضع النزاع بين الفريقين لنستبين ، ما هو متفق عليه ، وما هو مختلف فيه .

● إلهام الأنبياء وحى :

لا نزاع بين أحد من أهل الإسلام ، فى أن إلهام الأنبياء جزء من الوحي المعصوم ، وفيه جاء مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى رُوعى : أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها » (١) .

كما لا نزاع بينهم فى أن رؤيا الأنبياء وحى أيضاً ، وهى تدخل مع الإلهام فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ (٢) .

فقوله : ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ يشمل الإلهام فى اليقظة ، والرؤيا فى المنام .

وقد ذكر لنا القرآن رؤيا إبراهيم فى شأن ذبح ابنه وكيف اعتبر ما رآه فى المنام أمراً من الله تعالى ، وكذلك الابن : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .



● أثر التقوى والمجاهدة فى الهداية والإلهام :

ولا نزاع فى أن الإيمان والعبادة والتقوى ، ومجاهدة النفس ، لها أثرها فى تنوير العقل ، وهداية القلب ، والتوفيق إلى إصابة الحق فى الأقوال ،

(١) رواء أبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير . (٢) الشورى : ٥١ (٣) الصافات : ١٠٢

والسداد فى الأعمال ، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح ،
ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين .

ولا نزاع كذلك فى أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم ،
وأنوار المعرفة ، فى فهم كتابه أو سُنَّة نبيه ، بمحض الفيض الإلهى والفتح
الربانى - ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالذاكرة والتحصيل ، فلا يظفرون بما
يدانيه ، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم .

وهذا ما جعل كثيراً من كبار العلماء المؤلفين فى التفسير والحديث والفقه
وغيرها ، يجعلون فى عناوين كتبهم كلمات مثل : الفتح ، والفيض ...
ونحوهما (١) .

ولا نزاع كذلك فى أن يوهب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها
ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه ، أو كلمة يسمعها منه ،
أو يقرأ أفكاره ، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه .

وهى موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة ، وتنميها
تقوى الله تعالى ، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة ، حتى
إن المؤمن لتصدق فراسته ، كأنما ينظر بنور الله ، وينطق بلسان القدر ، ويصير
الغيب من وراء ستر رقيق .

ولابن القيم هنا كلام جيد فى « مدارج السالكين » يجب أن يُقرأ
ويراجع (٢) .

* *

(١) مثل « فتح البارى » لابن حجر ، و« فتح القدير » لابن الهمام فى الفقه ، و«
فتح القدير » للشوكانى فى التفسير ، و« فتح العزيز » للرافعى ، و« فتح الملك العلام »
لصديق حسن خان ، و« فيض القدير » للمناوى ، و« فيض البارى » للكشميرى
وغيرها .

(٢) مدارج السالكين : ١/١٢٩ - ١٣١

● ابن تيمية لا ينكر الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى :

ومن الناس مَنْ يظن أن شيخ الإسلام ابن تيمية يجحد كل أثر للإيمان والتقوى والمجاهدة الروحية في نفس الإنسان المسلم ، فلا تفيده نوراً يبصر به في الظلمات ، ولا فرقاً يميز به بين المتشابهات ، ولا هداية تنحل بها العقد والمشكلات ، وأن شأن المؤمن العابد التقى المحاسب لنفسه ، المراقب لربه ، المخلص في عمله ونيته ، كشأن العاصي المسرف على نفسه ، أو الغافل عن ذكر ربه ، الناسى لأمر آخرته ، إذا استويا في الذكاء والتحصيل !

وربما يؤيد هذا الظن ما قد يلحظه بعضهم من جمود وتزمت في فريق من الحرفيين الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى مدرسة ابن تيمية السلفية .

وكيف يُتصور من هذا الإمام الذي قضى عمره كله في رحاب كتاب الله تعالى ، وفي ظلال سنة رسول الله ﷺ ، ومع هدى خير قرون هذه الأمة ، وأفضل أجيالها علماً وعملاً وإيماناً وتقوى ، وإخلاصاً وجهاداً في الله ، أن يجحد أثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في هداية الإنسان المؤمن التقى إلى الحق والسداد ، وهو يجد بين يديه الآيات والأحاديث والآثار تنطق بهذا المعنى بكل بيان وجللاء ؟

وكيف يجحد ذلك أو يجهله وهو في حياته وسلوكه يجسد صورة مشرقة للعالم الرباني الذي جعل علمه وعمله ، وصلاته ، ونُسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين ، ففاضت الحكمة من قلبه على لسانه وقلمه ، ومنحه الله من النور والفرقان ما لم يُمنح إلا للصفوة من أولياء الله تعالى ؟

وكثيراً ما ظلم شيخ الإسلام وأصحابه ، ونُسب إليهم من الأفكار والمفاهيم والاتجاهات ما لم يقولوا به ، وما يكذبه تراثهم وسيرتهم العلمية والعملية ، وما ظلموا إلا بسبب هؤلاء المحجوبين المظموسين الياسين ، من زوامل النقل ، وأسارى الرسم والشكل ، الذين شغلوا بالظاهر عن الباطن ، وبالصور عن الحقائق . الذين حرّموا عمق الحاسة الروحية ، ولم يوجهوا عنايتهم لأعمال

القلوب ، ومقامات الإيمان والإحسان ، وتزكية الأنفس ، ومجاهدتها في الله ، حتى يهديها سبيله ، ويذيقها حلاوة الإيمان .

وليس أدل على منهج ابن تيمية وموقفه في هذه القضية من نقل كلامه نفسه بنصه رضى الله عنه .

يقول فيما نُقل في مجموع فتاواه ورسائله :

« القلب المعمور بالتقوى إذا رجَّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعى . قال : فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى الله ورسوله ، كان هذا ترجيحاً بدليل شرعى ، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطأوا ، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجَّح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة ، والظواهر والاستصحابات الكثيرة ، التى يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف وأصول الفقه .

وقد قال عمر بن الخطاب : اقربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ؛ فإنهم تنجلي لهم أمور صادقة . وحديث مكحول المرفوع : « ما أخلص عبد العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى الله الحكمة على قلبه ، وأنطق بها لسانه » . وفى رواية : « إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » (١) . وقال أبو سليمان الداراني : إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت ، ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد ، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً .

وقد قال النبي ﷺ : « الصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء » (٢)

(١) ذكره في الجامع الصغير بلفظ : « مَنْ أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ، ونسبه إلى أبي نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب . قال في « فيض القدير » : أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، وتعقبه السيوطي بأن الحافظ العراقي في تخريج « الإحياء » اقتصر على تضعيفه !

(٢) الحديث في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

وَمَنْ مَعَهُ نُورٌ وَبُرْهَانٌ وَضِيَاءٌ كَيْفَ لَا يَعْرِفُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ مِنْ فَحْوَى كَلَامِ أَصْحَابِهَا ؟ وَلَا سِيَّمَا الْأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ ذَلِكَ مَعْرِفَةً تَامَةً ؛ لِأَنَّهُ قَاصِدُ الْعَمَلِ بِهَا ؛ فَتَتَسَاعَدُ فِي حَقِّهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مَعَ الْإِمْتِثَالِ وَمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، حَتَّى إِنْ الْمَحَبِّ يَعْرِفُ مِنْ فَحْوَى كَلَامِ مَحْبُوبِهِ مَرَادَهُ مِنْهُ تَلْوِيحاً لَا تَصْرِيحاً :

وَالْعَيْنُ تَعْرِفُ مِنْ عَيْنِي مُحَدَّثُهَا إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
إِنَارَةُ الْعَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطُورِ هَوَى وَعَقْلُ عَاصِيِ الْهَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيرًا
وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا » (١) .

وَمَنْ كَانَ تَوْفِيقُ اللَّهِ لَهُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَا بَصِيرَةٍ نَافِذَةً وَنَفْسَ فَعَّالَةً ؟ وَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ وَالْبِرُّ فِي صَدُورِ الْخَلْقِ لَهُ تَرَدُّدٌ وَجَوْلَانٌ ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ اللَّهُ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَهُوَ فِي قَلْبِهِ ؟ وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الْإِثْمُ حَوَازِ الْقُلُوبِ . وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْكَذِبَ رِيَّةٌ وَالصَّدَقُ طِمَائِنَةٌ ، فَالْحَدِيثُ الصَّدَقُ تَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَيَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ .

وَأَيْضاً فَإِنَّ اللَّهَ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى الْحَقِّ ، فَإِذَا لَمْ تَسْتَحِلِّ الْفِطْرَةَ ، شَاهَدْتَ الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، فَأَنْكَرْتَ مَنَكْرَهَا ، وَعَرَفْتَ مَعْرُوفَهَا . قَالَ عُمَرُ : الْحَقُّ أَبْلَجٌ ، لَا يَخْفَى عَلَى فِطْنٍ .

فَإِذَا كَانَتِ الْفِطْرَةُ مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ مُنَوَّرَةً بِنُورِ الْقُرْآنِ ، تَجَلَّتْ لَهَا الْأَشْيَاءُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْمَزَايَا ، وَانْتَفَتَ عَنْهَا ظُلُمَاتُ الْجَهَالَاتِ ، فَرَأَتْ الْأُمُورَ عَيَاناً مَعَ غَيْبِهَا عَنْ غَيْرِهَا .

(١) هُوَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ .

وفى السنن والمستند وغيره عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال :
« ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، وفى
السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس
الصراط ، وداع يدعو من فوق الصراط ، والصراط المستقيم هو الإسلام ،
والستور المرخاة حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أن
يفتح باباً من تلك الأبواب ناداه المنادى : يا عبد الله ، لا تفتحه ، فإنك إن
فتحته تلجه ، والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط
واعظ الله فى قلب كل مؤمن » ، فقد بين فى هذا الحديث العظيم - الذى
من عرفه انتفع به انتفاعاً بالغاً إن ساعده التوفيق ، واستغنى به عن علوم كثيرة
- أن فى قلب كل مؤمن واعظاً ، والوعظ هو الأمر والنهى ، والترغيب
والترهيب .

وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت ، بخلاف
القلب الخراب المظلم ، قال حذيفة بن اليمان : إن فى قلب المؤمن سراجاً
يزهر ، وفى الحديث الصحيح : « إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه
كل مؤمن ، قارئ وغير قارئ » (١) ، فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا
يتبين لغيره ، ولا سيما فى الفتن ، وينكشف له حال الكذاب الواضع على
الله ورسوله ، فإن الدجال أكذب خلق الله ، مع أن الله يُجرى على يديه
أموراً هائلة ، ومخاريق مزلزلة ، حتى إن من رآه افتتن به ، فيكشفها الله
للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها .

وكلما قوى الإيمان فى القلب قوى انكشاف الأمور له ، وعرف حقائقها
من بواطنها ، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف ، وذلك مثل السراج
القوى والسراج الضعيف فى البيت المظلم ، ولهذا قال بعض السلف فى قوله :
« نُورٌ عَلَى نُورٍ » (٢) ، قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن

(١) متفق عليه من حديث حذيفة وأبى مسعود معاً . (٢) النور : ٣٥

لم يسمع فيها بالآثر ، فإذا سمع فيها بالآثر كان نوراً على نور . فالإيمان الذى فى قلب المؤمن يطابق نور القرآن ، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم ، والظن أن هذا القول كذب ، وأن هذا العمل باطل ، وهذا أرجح من هذا ، أو هذا أصوب .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « قد كان فى الأمم قبلكم مُحدثون ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » ، والمحدث : هو الملهم المخاطب فى سرّه ، وما قال عمر لشيء : إني لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن ، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه .

وأيضاً فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقيناً وظناً ، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى ، فإنه إلى كشفها أحوج ، فالؤمن تقع فى قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها فى الغالب ، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعانى القائمة بقلبه ، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عُرِف كذبه من فحوى كلامه ، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني فتمنعه البيان ، ولكن هو فى نفسه قد أخذ حذره منه ، وربما لوح أو صرّح به خوفاً من الله ، وشفقة على خلق الله ، ليحذروا من روايته أو العمل به .

وكثير من أهل الإيمان والكشف يُلقى الله فى قلبه أن هذا الطعام حرام ، وأن هذا الرجل كافر ، أو فاسق ، أو ديوث ، أو لوطى ، أو خمار ، أو مغن ، أو كاذب ، من غير دليل ظاهر ، بل بما يُلقى الله فى قلبه .

وكذلك بالعكس ، يُلقى فى قلبه محبة لشخص ، وأنه من أولياء الله ، وأن هذا الرجل صالح ، وهذا الطعام حلال ، وهذا القول صدق ، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يُستبعد فى حق أولياء الله المؤمنين المتقين .

وقصة الخضر مع موسى هى من هذا الباب ، وأن الخضر علم هذه

الأحوال المعينة بما أطلعه الله عليه ، وهذا باب واسع يطول بسطه ، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها » (١) . أهـ .

وما قاله شيخ الإسلام هنا ، أكدّه وأيدّه تلميذه المحقق الإمام ابن القيم - رحمهما الله - في عدد من كتبه ، وخصوصاً في كتابه الشهير « مدارج السالكين » .



● شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا :

كما لا نزاع في الإلهام والكشف في باب الكرامات والخوارق التي يكرم الله بها بعض أوليائه المتقين ، فيُقَرَّبُ لهم البعيد ، أو يُكثَّرُ على أيديهم القليل ، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل ، أو مكنونات الصدور ، أو خفايا الأمور ، أو يُدَلِّلُ لهم بعض الصعاب ، بغير الطريق المعتاد ، إلى غير ذلك مما كثرت فيه الحكايات ، وتناقلته الروايات ، مما لا يخلو بعضه من صحة وثبوت ، وما لا يسلم بعضه أيضاً من مبالغة أو اختلاق .

ولكن المبدأ مُسَلَّمٌ به وبتنتائجه بشرطه ، وهو ألا يخرم قاعدة دينية ثابتة ، ولا حكماً شرعياً متفقاً عليه .

وهو ما بيّنه وفصّله بأدلته وأمثله الإمام الشاطبي في كتاب المقاصد من « الموافقات » ، فليُرجع إليه .

فقد بيّن أن ما يخرم قاعدة شرعية ، أو حكماً شرعياً ليس بحق في نفسه بل هو إما خيال ، أو وهم ، وإما من إلقاء الشيطان ، وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه ، وجميع ذلك لا يصلح اعتباره ، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع ، فإن التشريع الذي جاء به رسول الله ﷺ عام لا خاص ،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٤٢/٢ - ٤٧

لا ينخرم أصله ، ولا ينكسر له اطراد ، ولا يُستثنى من الدخول تحت حكمه مكلف .

وإذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضاداً لما تمهد في الشريعة ، فهو فاسد باطل .

قال الشاطبي : « ومن أمثلة ذلك مسألة سئل عنها ابن رشد في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر ، فرأى الحاكم في منامه أن النبي ﷺ قال له : « لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطل » ، فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها في أمر ولا نهى ، ولا بشارة ، ولا نذارة ، لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة ، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع . وما روى : « أن أبا بكر رضى الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت » ، فهي قضية عين لا تقدر في القواعد الكلية لاحتمالها ، فلعل الورثة رضوا بذلك ، فلا يلزم منها خرم أصل .

وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء المعين مخصوب أو نجس أو أن هذا الشاهد كاذب ، أو أن المال لزيد وقد تحصّل بالحُجّة لعمره ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يصح له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر ، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم ، ولا ترك قبول الشاهد ، ولا الشهادة (١) بالمال لزيد على حال . فإن الظواهر قد تعيّن فيها بحكم الشريعة أمر آخر ، فلا يتركها اعتماداً على مجرد المكاشفة أو الفراسة ، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية ، ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها ، وإن ترتبت في الظاهر موجباتها ، وهذا غير صحيح بحال . فكذا ما نحن فيه .

وقد جاء في الصحيح : « إنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون

(١) لعلها : ولا الحكم .

ألحن بحُجَّتِهِ من بعض ، فأحكم له على نحو ما أسمع منه « . . الحديث (١) ،
فقيّد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك . وقد كان كثير من الأحكام
التي تجرى على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق وباطل ، ولكنه عليه
الصلاة والسلام لم يحكم إلا على وفق ما سمع ، لا على وفق ما علم ،
وهو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه « (٢) . أهـ .

وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يعلم من دخائل المنافقين وبواطن
كفرهم ما يعلم ، ولكنه لم يعاملهم وفقاً لما كشف الله له من بواطنهم ، بل
عاملهم حسب ظواهرهم ، وأجرى عليهم أحكام الإسلام ، ومنحهم حقوق
المسلمين في الحياة وبعد الممات .

وبهذا رد على من أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين ،
فقال : « أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » !

وهكذا أمرنا أن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولم نؤمر أن نشق
عن قلوب الناس .



● في هذه الأمور يتحدد النزاع :

إذا كانت المدرسة السلفية - وعلى رأسها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه
ابن القيم - لا ترفض الكشف الصحيح ، والفراسة الصادقة ، والرؤيا
الصالحة ، وكان هذا موقف الربانيين الراسخين من علماء الأمة كالشاطبي
وغيره ، فأين يكون موضع النزاع بين المتصوفة وغيرهم ؟

(١) بقيته : « فمن قضيتُ له شيء من حق أخيه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من
النار » أخرجه الشيخان .
(٢) الموافقات : ٢/٢٦٦ - ٢٦٨

نستطيع أن نحدد مواضع النزاع فى ستة أمور :

١ - زعمهم أن إلهامهم أو كشفهم دليل شرعى ، يؤخذ منه الحكم بالحِلِّ أو الحُرْمَةِ أو الكراهة أو الوجوب ، أو الاستحباب .

بل قد يجعلون إلهامهم حُجَّةً على الشرع نفسه ، فإذا حرَّم الشرع ، وحلَّ إلهامهم أو العكس ، فإن إلهامهم هو الحُجَّةُ المعتمدة ، والدليل المرجح .

٢ - ومعنى هذا أنهم يُضفون على إلهاماتهم وكشوفهم العصمة والقداسة ، فهى الصواب الذى لا يحتمل الخطأ بحال ، على خلاف أقوال الائمة المجتهدين التى تحتمل الخطأ والصواب .

٣ - تحقيرهم للعلم الشرعى ، علم الكتاب والحديث ، والفقه ، وغيرها ، الذى اعتبر طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وادعائهم أنهم لا حاجة لهم إلى أخذ العلم من أسبابه ووسائطه النقلية ، فهم يأخذونه مباشرة عن الله تعالى : « حدثنى قلبى عن ربه » .

٤ - تفرقتهم بين « الشريعة » و « الحقيقة » ، أو بين « العلم » الذى يأتى به « النص » و « المعرفة » التى يأتى بها « الكشف » ، واعتبار الأولى من نصيب العوام والآخرى من حظ الخواص .

٥ - اعتبارهم الكشف هو غاية الغايات التى يسعون إليها ، ويحرصون عليها كأنما أصبحت عبادتهم ومجاهدتهم ، ابتغاء الكشف لا ابتغاء وجه الله .

٦ - اتخاذهم إلى هذا الكشف طرقاً مبتدعة لم يجرى بها كتاب ولا سُنَّة ، ولا عمل بها سلف الأمة .

ويمكن إدماج الأمرين الخامس والسادس ، فتكون المواضع خمسة .

وسنفصل القول فى هذه الأمور الستة - أو الخمسة - فى المباحث التالية .

* * *

١ - دعوى حجية الإلهام فى الأحكام الشرعية

● حجج المحققين من أهل السُّنَّة :

ذكرنا أن رأى جمهور علماء الأمة : أن الإلهام لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحجج كلها فى باب المباح .

قال الإمام الدبوسى : وَحُجَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ - يعنى فى عدم الاستدلال بالإلهام فى الأحكام - الآيات والنصوص الدالة على اعتبار الحُجَّة :

يعنى مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ،
﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) ... وغيرها .

قال : والحث على التفكير فى الآيات ، والاعتبار ، والنظر فى الأدلة ، ودم الأمانى ، والهواجس والظنون ، وهى كثيرة مشهورة .

(ب) وأضاف إلى ذلك : بأن الخاطر قد يكون من الله ، وقد يكون من الشيطان ، وقد يكون من النفس ، وكل شىء احتمال ألا يكون حقاً لم يوصف بأنه حق (٤) .

(ج) ومما يؤيد ذلك ما جاء فى الحديث المشهور : « إِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَةَ بَقَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَةٌ » (٥) ، فكيف يستطيع غير المعصوم أن يميز بين لمة الملك ولمة الشيطان ؟

(١) البقرة : ١١١ (٢) الأنعام : ١٤٣ (٣) الأنعام : ١٤٨

(٤) نقله فى فتح البارى : ٤٤/١٦ ، طبع مصطفى الحلبي .

(٥) عزاه فى الجامع الصغير إلى الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود ، وقال الترمذى : حسن غريب . (فيض القدير : ٥٠٠/٢) .

وفرق بعضهم بينهما : بأن الخاطر الذى يكون من الحق يستقر ولا يضطرب ، والذى يكون من الشيطان يضطرب ولا يستقر ، ولكن هذه التفرقة نفسها تحتاج إلى دليل شرعى ، فالأولى ما قاله ابن السمعاني : إن كل ما استقام على الشريعة المحمدية ، ولم يكن فى الكتاب والسنة ما يرده ، فهو مقبول ، وإلا فمردود ، يقع من حديث النفس ، ووسوسة الشيطان .

ثم قال : ونحن لا ننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه ، يزداد به نظره ، ويقوى به رأيه ، وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لا يعرف أصله ، ولا نزع من أنه حجة شرعية ، وإنما هو نور يختص الله به من يشاء من عباده ، فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة (١) . أهـ .

وأضاف العلامة الفنارى - الحنفى - فى كتابه « فصول البدائع » فى أصول الفقه - أربعة أوجه فى إبطال حججة الإلهام :

أولاً : أنه معارض بالمثل ، (بمعنى : أن يحتج زيد بإلهامه ، فيعارضه عمرو بإلهام مثله ، ولا مزية لأحدهما على الآخر) .

ثانياً : أنه ملتبس بالهواجس والوساوس ، فلا يتبع إلا إذا كان على وفق الحجة الشرعية ، كيف وإذا وجب رد الحديث المخالف لكتاب الله ، فرد غيره أولى !

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٢) ، ونحوه : (أى من الآيات التى تدعو إلى طلب البرهان ، وتحث على النظر والتدبر ، وترفض تقليد الآباء ، وطاعة الكبراء ونحوها) .

رابعاً : دلالة الإجماع على عدم جواز (قبول) قول الرسول (أى

(١) فتح البارى : ٤٤/١٦ ، طبع مصطفى الحلبي . (٢) الإسراء : ٣٦

رسول (إلا بعد إظهار المعجزة ، وإلا لاشتبه النبي بالمتنبىء وقبول المتنبىء كفر (١) . اهـ .



● شبهات القائلين بحجية الإلهام فى الأحكام الشرعية :

ذكر الدبوسى عن بعض المبتدعة أن الإلهام حُجَّة فى الشرع ، وكذلك نقل صاحب « فصول البدائع فى أصول الشرائع » ، والزركشى فى « البحر » ، والشوكانى فى « إرشاد الفحول » وغيرهم .

ومجمل ما استند إليه هؤلاء المبتدعة ما يأتى :

١ - إن الله تعالى يقول : ﴿ فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٢) ، فبين أن النفوس مُلَهمة .

٢ - ويقول : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ... ﴾ (٣) ، أى ألهمها حتى عرفت مصالحها ، فيؤخذ منه مثل ذلك للآدمى بطريق الأولى .

٣ - ما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ومن ينظر بنور الله لا يخطئ ولا يضل .

٤ - قوله صلى الله عليه وسلم لو ابصرت « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » ، فجعل شهادة قلبه حُجَّة مُقدِّمة على الفتوى .

٥ - حديث : « قد كان فيما قبلكم من الأمم مُحدثون » ، والمُحدث كما هو معلوم : الذى يُحدث فى بصره وقلبه بالشىء ، فيكون كما حدث به . وقد يكون ذلك بخطاب من الملائكة الأعلى ، يسمع فيه صوتاً أو لا يسمع ، أو بصورة

(١) فصول البدائع فى أصول الشرائع - للعلامة الفناى : ٣٩١/٢

(٢) النحل : ٦٨

(٣) الشمس : ٨

يرأها بعين بصره أو قلبه ، أو يكون إعلالاً من الله له بلا واسطة ، فيكشف له المجهول ، ويتجلى له المغيب والمستور ، تكريماً من الله لأوليائه وأصفياه ، كما كرم أنبيائه بالوحي والمعجزة .

٦ - القياس على الرؤيا الصادقة ، وبخاصة رؤيا الرسول ﷺ ، فقد أخذ بعضهم من حديث : « إن الشيطان لا يتمثل بى » : أن من تمثلت صورته - صلى الله عليه وسلم - فى خاطره من أرباب القلوب ، وتصورت له فى عالم سره : أنه يخاطبه ويكلمه ، فإن ذلك يكون حقاً ، بل ذلك أصدق من رأى غيرهم ، لما من الله به عليهم من تنوير قلوبهم (١) .

٧ - قصة العبد الصالح الذى ذكره الله فى سورة الكهف ، والمعروف باسم الخضر عليه السلام ، مع كليم الله موسى ، أحد أولى العزم من الرسل ، وقد أمره الله تعالى أن يتبع الخضر فى إلهاماته ، وإن خالفت ظاهر الشرع ، وقد اعترض عليه موسى فى مواقف ثلاثة لا يتفق تصرفه فيها مع أحكام الشريعة الظاهرة ، وكان الحق مع الخضر فى المسائل الثلاث ، كما بين ذلك القرآن الكريم ، وذلك أن موسى كان معه علم الظاهر ، وكان مع الخضر علم الباطن ، وهو « علم لدنى » يعلمه الله من يشاء من عباده ، كما قال تعالى عن الخضر : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً » (٢) .

* *

● الرد على هذه الشبهات :

ولا حجة فى شىء مما استند إليه هؤلاء :

١ - أما آية : « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » فلها معنيان :

الأول : أن الاستعداد للفجور والتقوى أمر ركزه الله فى الفطرة ، فالإنسان قد خلق مزوداً باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، بحكم ازدواج طبيعته وخلقه من طين الأرض ونفخة الروح .

(١) فتح البارى : ٤٤/١٦ ، طبع مصطفى الحلبي . (٢) الكهف : ٦٥

والثاني : أن معنى : « ألهمها » بين لها ، وعرفها إياهما ، بحيث تُمَيِّز
 رشدًا من ضلالها ، كما جاء ذلك عن مفسري السلف (١) ، والآية على
 ذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ
 السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٣) .

على أن الإلهام في الآية إلهام عام لكل نفس ، والإلهام الذي يحتاجون به
 وله إلهام خاص بأرباب القلوب ، كما يقولون ، فلا دليل في الآية ، ولا شبه
 دليل .

٢ - وأما آية : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ فإن الله يلهم كل كائن حي
 ما تقوم به حياته ، وما يهتدى به إلى بقائه وحاجته كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي
 أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (٤) .

وقد ألهم الله تعالى الدواب والطيور والحشرات ، ما تدبر به أمر نفسها
 ونوعها ، وهذا من دلائل ربوبيته سبحانه لكل شيء . والإنسان لم يحرم هذا
 النوع من الهداية والإلهام ، وإلا فَمَنْ ألهم الطفل - منذ يولد - كيف يلتقم
 ثدي أمه ؟ ومن علّمه كيف يزرع ويصنع ، وكيف يستفيد من تجارب غيره ؟
 فأما الاستدلال بالآية على أن بعض الناس يُلهم ويُحدث بحيث يُعد إلهامه
 حجة في الشرع ، فلا .

٣ - وأما حديث : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » فهو لم
 يصل إلى درجة الصحة التي يُحتج بها (٥) ، وعلى التسليم بصحته ، فمعنى

(١) انظر روح المعاني : ١٤٣/٣٠ (٢) البلد : ١٠

(٣) الإنسان : ٣ (٤) طه : ٥٠

(٥) رواه الترمذي عن أبي سعيد واستغربه ، وكذا البخاري في التاريخ ، ورواه
 الطبراني وابن عدي والحكيم عن أبي أمامة ، وابن جرير في تفسيره عن ابن عمر ، قال
 السخاوي ، بعد ما ساق هذه الطرق : وكلها ضعيفة ، وفي بعضها ما هو متماسك
 لا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع ، وهو بهذا يرد على ابن الجوزي حيث
 حكم على الحديث بالوضع . قال المناوي : وحكم السخاوي على الكل بالضعف غير
 صواب ، فقد قال الهيمشي : إسناده الطبراني حسن ، وذكر المؤلف - يعني السيوطي -

أنه ينظر بنور الله : صدق نظره في الناس والحوادث ، فهو قد يرى شخصاً لأول مرة فيشك فيه ، ويظهر ذلك صحيحاً وتُصدق الوقائع نظره .
وقد قال أحد الأعراب : إنى إذا نظرت إلى الرجل من قفاه عرفت خلُّقه .
قيل له : فإذا رأيت وجهه ؟
قال : ذاك كتاب أقرؤه !

فهذه فِرَاسة فطرية ، وهناك فِرَاسة تُكتسب بالتعلم والتحصيل ، كما نقلنا ذلك من قبل عن الراغب الأصفهاني .
على أننا لا ننكر أن للإيمان والعبادة والتقوى والمجاهدة آثارها في جلاء مرآة النفس ، وصدق فراستها وحنسها ، فهذا ما قامت عليه الأدلة ، وما نقلناه تأييده عن ابن تيمية وينبغي أن يكون موضع اتفاق ، إنما الخلاف في الاحتجاج بالفِرَاسة ونحوها على الأحكام الشرعية .



● حديث : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » :

وأما حديث وابصة : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » ^(١) وما في معناه ^(٢) ، والاستدلال به على أن فتوى القلب مقدّمة على فتوى المفتي بحكم الشرع ، فهو استدلال مردود ، وتحريف للكلم عن مواضعه .

= في « الدرر » : أن الترمذى خرّجه من حديث ابن عمر وثوبان ، بزيادة : « وينطق بتوفيق الله » ، وذكر في تعقيبات الموضوعات : أن الحديث حسن صحيح . (فيض القدير : ١ / ١٤٤) . وذكر الألبانى الحديث في ضعيف الجامع الصغير ، فوافق السخاوى .
(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٨ / ٤) والدارمى (٢ / ٢٤٥ و ٢٤٦) في مسنديهما ، والبخارى في التاريخ وأبو يعلى (١٨٥٦) ، (١٨٥٧) والطبرانى (٤٠٣ / ٢٢) ، وحسنه النووى في رياض الصالحين وفي الأربعين (الحديث السابع والعشرون) : ٩٣ / ٢ ط . الرسالة ، وتبعه السيوطى فرمز له بالحسن في جامعه الصغير وحسنه الألبانى في صحيح الجامع .
(٢) مثل حديث أبى ثعلبة الخشنى : قلت يا رسول الله ، أخبرنى ما يحل لى ، وما يحرم على ؟ فقال : « البر : ما سكنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . والإثم : ما لم تسكن إليه النفس ، ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون » رواه الإمام أحمد (١٩٤ / ٤) وجوّد إسناده ابن رجب في الجامع (٩٥ / ٢) .

أولاً : لأن الحديث - كما نقل المناوى عن حُجَّة الإسلام - لم يرد كل أحد لفتوى نفسه ، وإنما ذلك لو ابصت في واقعة تخصه (١) .

أى أن الحديث لم يجرى بلفظ عام ، بحيث تؤخذ منه قاعدة عامة ، بل جاء فى واقعة معينة لشخص معين ، ووقائع الأعيان لا عموم لها ، كما هو مقرر فى الأصول .

ثانياً : على فرض العموم ، فموضع هذا فيما لا نص فيه ولا حُجَّة شرعية ، وإلا وجب اتباع الشرع ، قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، فكيف يوجب الله تعالى سؤالهم ثم نترك أجوبتهم وفتاواهم إلى فتاوى قلوبنا ؟

وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (٤) ، ولم يقل : رددوه إلى خواطركم وأحاديث قلوبكم .

ثالثاً : أن المفتى يبنى فتواه على ظاهر الحال كما يعرضه له السائل ، وقد يكون هناك أمور خفية لا يطلع عليها ، لعلة لو عرفها لغير فتواه . والمستفتى هو الذى يعرفها ، ولذلك تظل نفسه قلقة غير مطمئنة بما ألقى إليه من فتوى ، ففتوى المفتى هنا مثل قضاء القاضى ، الذى يحكم بالظاهر ، ويقضى على نحو ما يسمع ، ولكنه لا يجعل الحرام حلالاً لمن استقضاه إذا كان ألحن بحُجَّته من خصمه صاحب الحق .

وبهذا يكون الاستدلال بالحديث على حجية الخواطر والإلهامات فى مواجهة أدلة الشرع ، استدلالاً باطلاً .

= ومثل حديث أبى أمامة قال : قال رجل : يا رسول الله ، ما الإثم ؟ قال : « إذا حال فى صدرك شيء فدعه » قال ابن رجب : أخرجه الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه وإسناده جيد على شرط مسلم . المصدر السابق .

وأقوى من ذلك كله : حديث النواس بن سمعان عند مسلم (٢٥٥٣) وفيه : « والإثم : ما حالك فى نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

(١) فيض القدير : ٤٩٥ / ١ (٢) الأعراف : ٣

(٣) النحل : ٤٣ (٤) النساء : ٥٩

يقول العلامة ابن رجب الحنبلي في شرح حديث وابصة « استفت قلبك » :
« فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه ،
فما سكن إليه القلب ، وانشرح إليه الصدر ، فهو البرُّ والحلال ، وما كان
خلاف ذلك فهو الإثم والحرام ، وقوله في حديث الثَّوَّاس بن سَمْعَانَ :
« الإثم ما حاك في الصدر ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » إشارة إلى أن
الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً ، فلم ينشرح له الصدر ،
ومع هذا فهو عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه ، وهذا
أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه ، وهو ما استنكره الناس على فاعله
وغير فاعله . ومن هذا المعنى قول ابن مسعود رضي الله عنه : ما رآه
المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح^(١) .
وقوله في حديث وابصة وأبى ثعلبة : « وإن أفتاك المفتون » يعني أن ما حاك
في صدر الإنسان فهو إثم وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم ، فهذه مرتبة ثانية ،
وهو أن يكون الشيء مستنكراً عند فاعله دون غيره ، وقد جعله أيضاً إثماً ،
وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره للإيمان ، وكان المفتي يفتي له
بمجرد ظن ، أو ميل إلى هوى ، من غير دليل شرعي ، فأما ما كان مع
المفتي به دليل شرعي ، فالواجب على المفتي الرجوع إليه ، وإن لم ينشرح له صدره ،
وهذا كالرخص الشرعية مثل الفطر في السفر والمرضى ، وقصر الصلاة في
السفر ونحو ذلك ، مما لا ينشرح به صدور كثير من الجهَّال ، فهذا لا عبرة به .
وقد كان النبي ﷺ أحياناً يأمر أصحابه بما لا تنشرح به صدور بعضهم
فيمتنعون من فعله ، فيغضب من ذلك ، كما أمرهم بفسخ الحج إلى
العمرة^(٢) ، فكرهه مَنْ كره منهم ، وكما أمرهم بنحر هديهم والتحلل من
عمرة الخديبية فكرهوه ، وكرهوا مفاوضته لقريش على أن يرجع من عامه ،
وعلى أن مَنْ أتاه منهم يرده إليهم^(٣) .

(١) أورده الهيثمي في الحج (١/١٧٧ ، ١٧٨) وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني
في الكبير ورجاله موثقون . وصححه الحاكم (٣/٧٨ ، ٧٩) ووافقه الذهبي .
(٢) روى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم أربعة عشر من أصحابه ، ذكرهم في (زاد
المعاد) وخرج أحاديثهم بحققة حفظه الله فانظره (٢/١٧٨ ، ١٨٦) ط. الرسالة-بيروت .
(٣) انظر الخبر مطولاً في صحيح البخاري مع الفتح (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) .

وفى الجملة . . فما ورد النص به ، فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) ، وينبغي أن يتلقى ذلك بانسراح الصدر والرضا ، فإن ما شرعه الله ورسوله يجب الإيمان والرضا به والتسليم له ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

وأما ما ليس فيه نص من الله ولا رسوله ، ولا عمن يُقتدى بقوله من الصحابة وسلف الأمة ، فإذا وقع فى نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان ، والمنشرح صدره بتور المعرفة واليقين منه شيء ، وحكَّ فى صدره بشبهة موجودة ، ولم يجد مَنْ يفتى فيه بالرخصة ، إلا مَنْ يخبر عن رأيه ، وهو بمن لا يوثق بعلمه وبدينه ، بل هو معروف باتباع الهوى ، فهنا يرجع المؤمن إلى ما حاك فى صدره ، وإن أفتاه هؤلاء المفتون ، وقد نص الإمام أحمد على مثل هذا أيضاً (٣) . أهـ .

والخلاصة : أن استفتاء القلب إنما يُطلب حيث لا يوجد مفت ثقة يستند إلى دليل شرعى معتبر ، يثق المسلم بعلمه ودينه معاً .

وأضاف العلامة الشوكانى معنى آخر فى حديث : « استفت قلبك » وهو : أن ذلك فى الواقعة التى تتعارض فيها الأدلة (٤) .

ومعنى هذا أن الأدلة حين تتعارض ، ولا يوجد مرجح واضح يرجح أحدها على الآخر ، يكون قلب المؤمن وما يفتى به مرجحاً من المرجحات .

أقول : ومثله تعارض أجوبة أهل الفتوى بالنسبة للعامة المقلد ، ولم يكن لديه مرجح لأحدهم على الآخر أو الآخرين ، فينبغى أن يرجع إلى مَنْ يطمئن إليه قلبه .

(٢) النساء : ٦٥

(١) الأحزاب : ٣٦

(٣) جامع العلوم والحكم ج ٢ / ١٠١ - ١٠٣ ط . الرسالة .

(٤) إرشاد الفحول ص ٢٤٩

ولكن متى يؤخذ فتوى القلب ؟ فى الإباحة أم التحريم أو فيهما معاً ؟ هنا يقول الإمام الغزالي : واستفتاء القلب إنما هو حيث أباح المفتى ، أما حيث حرّم فيجب الامتناع .

وهذا مقبول إذا كان تحريم المفتى بدليل مقنع .

ولكن أى قلب يعتمد عليه فى الفتوى ؟

هنا يذكر الغزالي أنه لا يعول على كل قلب ، فربّ قلب موسوس ينفى كل شيء ، وربّ متساهل يطير إلى كل شيء ، فلا اعتبار بهذين القلبين ، وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق لدقائق الأحوال ، فهو المحك الذى يمتحن به حقائق الأمور ، وما أعز هذا القلب (١) .

* *

● حديث : « لقد كان فيمن قبلكم محدّثون » :

٥ - وأما حديث : « لقد كان فيمن قبلكم محدّثون » ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر بن الخطاب » ، فهو حديث صحيح متفق عليه (٢) ، ولكن لا دليل فيه على الدعوى .

ولا بد من وقفة عند نص الحديث ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا ، وعلّق وجودهم فى هذه الأمة بـ « إن » الشرطية ، مع أنها أفضل الأمم ، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبينا ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدّث ولا ملهم ، ولا صاحب كشف ولا منام . فهذا التعليق لكمال الأمة ، واستغنائها لا لنقصها » (٣) .

(١) إرشاد الفحول ص ٢٤٩

(٢) رواه البخارى من حديث أبى هريرة ، ومسلم من حديث عائشة .

(٣) انظر مدارج السالكين : ٣٩/١

والحديث ليس فيه أى دليل على أن المُحدِّث أو المُلهَم يعمل بحديث قلبه فى مواجهة شرع ربه ، ولو فعل لكان مُحدِّثاً من الشيطان لا من الرحمن .

قال الإمام ابن تيمية فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : « حدَّثنى قلبى عن ربه » ، فصحيح أن قلبه حدِّثه ولكن عمن ؟ عن شيطانه ؟ أو عن ربه ؟ ! فإذا قال : « حدَّثنى قلبى عن ربه » كان مسنداً الحديث إلى مَنْ لم يعلم أنه حدِّثه به ، وذلك كذب .

قال : « ومحدِّث الأُمَّة - يعنى عمر بن الخطاب - لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوّه به يوماً من الدهر ، وقد أعاده الله من أن يقول ذلك ، بل كتب كاتبه يوماً : « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقال : لا ، امحه واكتب : « هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه برىء » .

وقال فى الكلاله - ميراث مَنْ مات ولا والد له ولا ولد - : « أقول فيها برأى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان » .

فهذا قول المُحدِّث بشهادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنت ترى الاتحادى والحلولى والإباحى ، والشطاح والسماعى ، يجاهر بالقحة والفرية فيقول : حدَّثنى قلبى عن ربه !!

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبين ، والقولين والحالين ، وأعط كل ذى حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً (١) .

وأما ادعاء بعض المُحدِّثين أو المُلهَمين بأنه جاءه التحديث أو الإلهام أو الكشف مقروناً بسماع ، قطع بموجبه ، وأنه من الله تعالى إليه ، يعلم ضرورى يجده فى نفسه ، فقد حقق هذا المقام الإمام ابن القيم تحقيقاً يجب أن ننقله عنه ،

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ٤٠ / ١ .

حتى لا تزل الأقدام ، وتضل الأفهام . قال في « المدارج » شارحاً لكلام الشيخ الهروي :

« قلت : أما حصوله بواسطة سمع : فليس ذلك إلهاماً ، بل هو من قبيل الخطاب ، وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء ، وهو الذي خُصَّ به موسى ، إذ كان المخاطب هو الحق عزَّ وجلَّ .

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع : فهو من أحد وجوه ثلاثة ، لا رابع لها :

أعلاها : أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً . فإن هذا يقع لغير الأنبياء ، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام ، فلما اكتوى تركت خطابه ، فلما ترك الكى عاد إليه الخطاب . وهو نوعان :

أحدهما : خطاب يسمعه بأذنه ، وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين .

والثاني : خطاب يُلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه ، كما في الحديث المشهور : « إن للملك لمة بقلب ابن آدم ، وللشيطان لمة . فلمة الملك : إبعاد بالخير ، وتصديق بالوعد ، ولة الشيطان : إبعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ، ثم قرأ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَقَضَاءً ۖ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۖ ﴾ ، قيل في تفسيرها : قوُّوا قلوبهم ، وبشِّروهم بالنصر . وقيل : احضروا معهم القتال .

والقولان حق . فإنهم حضروا معهم القتال ، وثبَّتوا قلوبهم .

ومن هذا الخطاب : واعظ الله عزَّ وجلَّ في قلوب عباده المؤمنين كما في جامع الترمذي ومسنَد أحمد من حديث التَّوَّاس بن سَمْعَانَ عن النَّبِيِّ ﷺ ،

(١) البقرة : ٢٦٨

(٢) الأنفال : ١٢

قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَرْبٌ مِثْلًا : صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَعَلَى كُنْفَتَى الصِّرَاطِ سُورَانٌ ، لِهَمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتَا ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سِتُورٌ مَرْخَاةٌ ، وَدَاعٌ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ ، وَدَاعٌ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ ، فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ : الْإِسْلَامُ . وَالسُّورَانِ : حُدُودُ اللَّهِ . وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتَحَتَا : مُحَارِمُ اللَّهِ . فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ حَتَّى يَكْشِفَ السِّتْرَ . وَالِدَاعِيُّ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ : كِتَابُ اللَّهِ . وَالِدَاعِيُّ فَوْقَ الصِّرَاطِ : وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ » ، فَهَذَا الْوَاعِظُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْإِلَهَامُ الْإِلَهِيُّ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ .

وَأَمَّا وَقُوعُهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ : فَمِمَّا لَمْ يَتَبَيَّنْ بَعْدُ . وَالْجُزْمُ فِيهِ بِنَفْيِ أَوْ إِثْبَاتِ مَوْقُوفٍ عَلَى الدَّلِيلِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

« النَّوعُ الثَّانِي مِنَ الْخُطَابِ الْمَسْمُوعِ : خُطَابُ الْهَوَاتِفِ مِنَ الْجَنَانِ . وَقَدْ يَكُونُ الْمُخَاطَبُ جَنِيًّا مُؤْمِنًا صَالِحًا ، وَقَدْ يَكُونُ شَيْطَانًا . وَهَذَا أَيْضًا نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَخَاطَبَهُ خُطَابًا يَسْمَعُهُ بِأُذُنِهِ .

وَالثَّانِي : أَنْ يَلْقَى فِي قَلْبِهِ عِنْدَمَا يَلْمُ بِهِ . وَمِنْهُ وَعْدُهُ وَتَمَنِّيَتُهُ حِينَ يَعِدُ الْإِنْسِي وَيَمْنِيهِ ، وَيَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ ، وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١) ، وَقَالَ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (٢) . وَلِلْقَلْبِ مِنْ هَذَا الْخُطَابِ نَصِيبٌ ، وَلِلْأُذُنِ أَيْضًا مِنْهُ نَصِيبٌ ، وَالْعَصْمَةُ مُنْتَفِيَةٌ إِلَّا عَنِ الرُّسُلِ ، وَمَجْمُوعُ الْأُمَّةِ .

فَمِنْ أَيْنَ لِلْمُخَاطَبِ أَنْ هَذَا الْخُطَابُ رَحْمَانِي ، أَوْ مُلْكِي ؟ بَأَيِّ بَرَهَانٍ ؟ أَوْ بَأَيِّ دَلِيلٍ ؟ وَالشَّيْطَانُ يَقْذِفُ فِي النَّفْسِ وَحْيَهُ ، وَيَلْقَى فِي السَّمْعِ خُطَابَهُ ، فَيَقُولُ الْمَغْرُورُ الْمَخْدُوعُ : « قِيلَ لِي ، وَخُوطِبْتُ » صَدَقْتَ ، لَكِنَّ الشَّأْنَ فِي الْقَائِلِ لَكَ وَالْمُخَاطَبِ ، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَغِيلَانَ بْنِ سَلَمَةَ - وَهُوَ مِنَ الصَّحَابَةِ لَمَّا طَلَّقَ نِسَاءَهُ ، وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ - « إِنِّي لَا أَظُنُّ

(٢) البقرة : ٢٦٨

(١) النساء : ١٢٠

الشیطان - فیما یسترق من السمع - سمع بموتك ، فقفذه فی نفسك « ، فمن یأمن القراء بعدك یا شهر ؟

« النوع الثالث : خطاب حالى ، تكون بدايته من النفس ، وعوده إليها ، فیتوهمه من خارج ، وإنما هو من نفسه ، منها بدأ وإليها يعود .

وهذا كثيراً ما يعرض للسالك ، فیغلط فيه ، ويعتقد أنه خطاب من الله . كلّمه به منه إليه . وسبب غلظه : أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة ، وانقطعت علقها عن الشواغل الكثيفة : صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن ، ومصير الحكم لها ، فتتصرف لهما ، فتتصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعانى التى هى متصلة بهما . وتشتد عناية الروح بها ، وتصير فى محل تلك العلائق والشواغل فتملأ القلب . فتصرف تلك المعانى إلى المنطق ، والخطاب القلبي الروحى بحكم العادة ، ويتفق تجرد الروح ، فتتشكل تلك المعانى للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة ، وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية ، فى صورها ، ويسمع الخطاب ، وكله فى نفسه ليس فى الخارج منه شيء ، ويحلف أنه رأى وسمع ، وصدق لكن رأى وسمع فى الخارج ، أو فى نفسه ؟ ويتفق ضعف التمييز . وقلة العلم ، واستيلاء تلك المعانى على الروح ، وتجردها عن الشواغل .

فهذه الوجوه الثلاثة هى وجوه الخطاب ، ومن سمع نفسه غيرها فإنما هو غرور ، وخدع وتلبیس ، وهذا الموضع مقطع القول ، وهو من أجل المواضع لمن حققه وفهمه . والله الموفق للصواب « (١) .

(١) مدارج السالكين : ٤٥ / ١ - ٤٨

● قياس الإلهام على الرؤيا الصادقة :

أما قياس الإلهام والكشف على الرؤيا الصادقة ، وخصوصاً رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي لا يتمثل الشيطان به . . فهو قياس لم يستوف شرائطه ، لأن المقيس عليه نفسه غير مسلم عند الخصم .

وقد علم أن الرؤيا الصادقة مجرد مبشرات ومنبهات ، كما صح في الحديث ، وليست أدلة تؤخذ منها الأحكام .

حتى رؤيا النبي ﷺ نفسه ، لا يجوز أن تكون مصدراً لحكم شرعي ، لم يثبت بالقرآن والسنة ، بعد أن أكمل الله لنا الدين ، وأتم به علينا النعمة ، وهو ما قرره المحققون من علماء الأمة ، وردوا على من اتخذ من حديث : « إن الشيطان لا يتمثل بي » - وهو صحيح متفق عليه - دليلاً على أنها تكون حجة يلزم العمل بها .

قالوا : لا تكون الرؤيا حجة ، ولا يثبت بها حكم شرعي ، وإن كانت روى النبي ﷺ رؤيا حق ، والشيطان لا يتمثل به ، لكون النائم ليس من أهل التحمل للرواية لعدم ضبطه وحفظه (١) .

ونضيف هنا أمراً آخر ، وهو : أن الرائي لا يمكنه أن يجزم ويوقن بأن الذي رآه هو النبي ﷺ ، إلا إذا كان يعرف صورته في اليقظة معرفة تامة ، وذلك لا يتحقق إلا للصحابة رضي الله عنهم . وربما لمن عرف أوصافه عليه الصلاة والسلام معرفة كاملة . وسنحقق ذلك بتفصيل في موضع آخر .

وذكر الشوكاني قولاً آخر : أنه يعمل بالرؤيا ما لم يخالف شرعاً ثابتاً .

قال الشوكاني : « ولا يخفأك أن الشرع الذي شرعه الله لنا على لسان نبينا ﷺ قد كمله الله عز وجل ، وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (٢) ، ولم

(٢) المائدة : ٣

(١) إرشاد الفحول للشوكاني ص ٢٤٩

يأتنا دليل يدل على أن رؤيته في النوم بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم إذا قال فيها بقول ، أو فعل فيها فعلاً ، يكون دليلاً وحجة . بل قبضه الله إليه بعد أن كمل لهذه الأمة ما شرعه لها على لسانه ، ولم يبق بعد ذلك حاجة للأمة في أمر دينها ، وقد انقطعت البعثة لتبليغ الشرائع وتبيينها بالموت ، وإن كان رسولا حياً وميتاً . وبهذا نعلم أن لو قدرنا ضبط النائم لم يكن ما رآه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم أو فعله حجة عليه ولا على غيره من الأمة » (١) . أهـ .



● قصة الخضر مع موسى :

وأما الاستدلال بقصة الخضر مع موسى ، أو موسى مع الخضر عليهما السلام ، فلا يملك المسلم فيها أو فيما شابهها إلا أن يقف موقف موسى أولاً ، بأن ينكر كل ما خالف ظاهر الشرع ، إلا أن يكون معه أمر من الله باتباع ذلك الآخر المخالف ، ولا أمر بعد رسول الله ﷺ ، فقد اكتمل الدين وانقطع الوحي ، فموسى ينفذ أمر الله باتباع الخضر ، والخضر ينفذ أمر الله كذلك في مواقفه الثلاثة ، كما سجل القرآن ذلك على لسانه إذ يقول في نهاية القصة لموسى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٢) .

وللإمام أبى إسحاق الشاطبى ، كلمة نيرة يرد بها على من تعلق بقصة الخضر عليه السلام في جواز مخالفة الشريعة باسم الكشف أو غيره ، ذكرها في كتابه القيم « الموافقات » قال :

« وأما قصة الخضر - عليه السلام - وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ ، فيظهر به أنه نبي وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالاً بهذا القول . ويجوز

(٢) الكهف : ٨٢

(١) إرشاد الفحول للشوكاني ص ٢٤٩

للنبي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير إشكال ، وإن سلم فهي قضية عينية ،
ولأمر ما ، وليست جارية على شرعنا .

والدليل على ذلك أنه لا يجوز في هذه الملة لولى ، ولا لغيره ممن ليس
بنبي أن يقتل صبياً لم يبلغ الحلم ، وإن علم أنه طبع كافرأ ، وأنه لا يؤمن
أبداً ، وأنه إن عاش أرهق أبويه طغياناً وكفرأ ، وإن أذن له من عالم الغيب
في ذلك ، لأن الشريعة قد قررت الأمر والنهي ، وإنما الظاهر في تلك القصة
أنها وقعت على مقتضى شريعة أخرى ، وعلى مقتضى عتاب موسي - عليه
السلام ، وإعلامه أن ثمَّ علماً آخر ، وقضايا آخر لا يعلمها هو .

فليس كل ما اطلع عليه الولي من الغيوب يسوغ له شرعاً أن يعمل عليه ،
بل هو على ضربين :

أحدهما : ما يخالف العمل به ظواهر الشريعة من غير أن يصح رده إليها ،
فهذا لا يصح العمل عليه البتة .

والثاني : ما لم يخالف العمل به شيئاً من الظواهر ، أو إن ظهر منه
خلاف فيرجع بالنظر الصحيح إليها ، فهذا يسوغ العمل عليه . وقد تقدم
بيانه .

فإذا تقرر هذا الطريق فهو الصواب ، وعليه يُربى المربي ، وبه يُعلق همم
السالكين ، تأسيساً بسيد المتبوعين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو
أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ ، وأولى بفسوخ القدم ، وأحرى بأن
يتابع عليه صاحبه ، ويُقتدى به فيه ، والله أعلم ، (١) .

وقبل الشاطبي بين شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة الناصعة من الكتاب
والسنة الغلط الذي وقع لأولئك القوم في الاحتجاج بقصة موسي والخضر
على مخالفة الشريعة ، وما ذكره : أن موسي عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى

(١) الموافقات : ٢/٢٩٦ ، ٢٩٧

الخضر ولا أوجب الله على الخضر متابعتة وطاعته ، بل قد ثبت في الصحيحين : « أن الخضر قال له : يا موسى ؛ إني على علم من علم الله علّمني الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علّمك الله لا أعلمه » ، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة .

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فيما فضّله الله به على الأنبياء ، قال : « كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثت إلى الناس عامة » .

فدعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعتة وطاعته ، والاستغناء عن رسالته ، كما ساء للخضر الخروج عن متابعتة موسى وطاعته ، مستغنياً عنه بما علّمه الله .

وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد : إني على علم من علم الله علّمني الله لا تعلمه .

ومن سوء هذا ، أو اعتقد أن أحداً من الخلق - الزهاد والعباد أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومتابعتة ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تُذكر هنا .

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ، ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل ، وافقه موسى ، ولم يختلفا حيثئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه .

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب ، وإن كان قد يكون أفضل من الأول ، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله ، إما بإذن لفظي أو غيره ، فيتصرف ، وذلك مباح في الشريعة ، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف .

وخرق السفينة كان من هذا الباب ، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك ، لئلا يأخذها . . . خير من انتزاعها منهم .

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها ، فسألوا النبي ﷺ عنها فأذن لهم في أكلها ، ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح ، لأنه كان مأذوناً فيه عرفاً ، والإذن العرفي ، كالإذن اللفظي .

ولهذا بايع النبي ﷺ عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظاً .

ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفراً قليلاً إلى بيته ، قام بجميع أهل المسجد لما علم من طيب نفس أبي طلحة ، وذلك لما يجعله الله من البركة ، وكذلك حديث جابر .

وقد ثبت أن لحاماً ، دعاه فاستأذنه في شخص يستتبعه ؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما . وكذلك قتل الغلام ، كان من باب دفع الصائل على أبويه ، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال .

فلهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجدة الحروري (من رؤوس الخوارج) لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال : « إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم » (١) .



(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - المجلد الحادى عشر - ، ص ٤٢٥ ، وما ذكره عن ابن عباس هنا ، فإنما قصد به - كما قال السبكي - المحاجة والإحالة على ما لا يمكن ، قطعاً لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر ، وليس مقصوده - رضى الله عنه - أنه إن حصل له ذلك يجوز القتل (انظر روح المعاني للألوسى : ١٦ / ١٧) .

● شهادة القلب فى التحرى :

راد بعضهم دليلاً آخر ، لمشروعية الاحتجاج بالإلهام على الأحكام ، فاستدل بما قرره الفقهاء من الترجيح بين القياسين المتعارضين بشهادة القلب ، وكذلك أنواع التحرى فى القبلة ، واختلاط الحرام بالحلال ، والنجس بالطاهر .

ذكر ذلك العلامة الفناى الحنفى ، ورد عليه قائلاً : « التحرى ليس من الإلهام المخصوص بالعدل التقى ، بل هو دليل ضرورى لا يُعمل به إلا عند العجز عن أسباب العلم ، مشروع فى حق الصالح والطالح » (١) . أهـ .



(١) فصول البدائع : ٣٩٢/٢

٢ - ادعاء العصمة لما جاء عن طريق الكشف والإلهام

من النقاط الأساسية التي خطأً فيها المحققون من علماء السُّنَّة الطائفة التي غلت في إثبات الإلهام وحجيته : هي اصفائهم على ما جاءهم عن طريق الإلهام والكشف لونا من القداسة والعصمة ، بدعوى أنه من الله تعالى ، وما كان من عند الله فهو حق لا يدخله باطل .

وإذا كانت أقوال الأئمة المجتهدين منذ عصر الصحابة فمن بعدهم قابلة للصواب والخطأ ، وهم مأجورون على الصواب أجرين ، ومأجورون على الخطأ أجراً واحداً ، لإخلاصهم واستفراغهم الوسع في تحرّي الصواب وتحصيله ، فإن خواطر الصوفية وإلهاماتهم لا تقبل الخطأ في زعمهم .

ولهذا وجدنا مثل صاحب « فوائح الرحموت شرح مسلم الثبوت » في أصول الفقه ، وهو ذو نزعة صوفية ظاهرة ، يرد على العلامة ابن الهمام الحنفى - الذى نفى أن يكون الإلهام حُجَّة أصلاً لانعدام ما يوجب نسبته إلى الله تعالى - قائلاً : « إن الإلهام لا يكون إلا مع خلق علم ضرورى أنه من عند الله تعالى ، أو من عند الروح المحمدى ، فحيث لا يتطرق إليه شبهة الخطأ ، وهذا النحو من العلم أعلى مما يحصل بالأدلة غير القاطعة ، فالعجب كل العجب من مثل هذا الشيخ قد رفض وعاء من العلم ، ولعله زعم أن الإلهام ما يحدث في القلب من قبيل الخطرات ، وليس كذلك ، أما سمعت ما كتب الشيخ قطب وقته أبو يزيد البسطامى قدّس سره الشريف لبعض من المُحدثين : أنتم تأخذون عن ميت فتنسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ، ونحن نأخذ من الحى الذى لا يموت ! وإن تأملت فى مقامات الأولياء ومواجيدهم وأذواقهم كمقامات الشيخ محبى الدين ، وقطب الوقت محبى الملة والدين السيد عبد القادر الجيلانى ، الذى قدّمه على

رقاب كل ولى ، والشيخ سهل بن عبد الله التستري والشيخ أبى مدين
المغربى ، والشيخ أبى يزيد البسطامى ، وسيد الطائفة الجنيدي البغدادي ،
والشيخ أبى بكر الشبلى ، والشيخ عبد الله الأنصارى ، والشيخ أحمد
النامقى ، وغيرهم - قُدِّست أسرارهم - علمت أن ما يُلهمون به لا يتطرق
إليه احتمال وشبهة ! بل هو حق حق حق ، مطابق لما فى نفس الأمر !
ويكون مع خلق علم ضرورى أنه من الله تعالى ، لكن لا ينالون هذا الوعاء
من العلم إلا بالمدد المحمدى وتأيدده ، لا بالذات من غير وسيلة أصلاً ،
وإن تأملت فى كلام الشيخ الأكبر خليفة الله فى الأرضين خاتم فص الولاية
الشيخ محبى الملة والدين الشيخ محمد بن العربى قُدِّس سره ووفقنا لفهم
كلماته الشريفة ، لما بقى لك شائبة وهم وشك فى أن ما يُلهمون به من الله
تعالى . وما يصلح ههنا أنه علم ضرورة من الدين أن أولياء هذه الأمة أفضل
من أولياء الأمم السابقين ، كما أن نبيهم أفضل من نبي السابقين ، ولا شك
أن الأولياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل مثل مريم وأم موسى وزوجة فرعون
كان يُوحى إليهم ، ولا أقل من أن يكون إلهاماً ، ولا يكون إلا مع خلق علم
ضرورى أنه من الله تعالى ، فهو حُجَّة قاطعة ، ولو لم يكن أحد من هذه
الأمة المرحومة الفاضلة منهم أفضل فى تحصيل العلم القطعى ، فتكون مفضولة
عنهم غاية المفضولية ، لأن التفاضل ليس إلا بالعلم ، والفضل بما عداه غير
معتد به ، ولا خلف أشنع من هذا اللارم فافهم ^(١) .

وقد نقلنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ما يرد على آخر هذه المقولة ،
باستغناء هذه الأمة عن المُحدثين والمُلهمين ، بكمال رسالة نبيهم ، وتمام
شريعتهم ، ولهذا كانت صيغة الحديث : « فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » .
أما ما ذكره صاحب الفواتح ، فهو كلام خطابى غير علمى ، ومجرد

(١) فواتح الرحموت المطبوع مع المستصفى للغزالي : ٣٧٢/٢

دعاوى عريضة من غير برهان ، وقد خلط في الأسماء التي حشرها الحابل
بالتابل ، والسُّنِّي بالمتدع ، والمُؤَحَّد بالحلولي والاتحادي ، ومن عجب أن
يكتب هذا في علم الأصول ، الذي هو ميزان العقول ، ومنطق المنقول !
وما قاله صاحب « الفواتح » هذا وأمثاله شبيه بما قاله الشيعة في أئمتهم ،
وهو ما أنكره أهل السُّنَّة عليهم .

فقد انتهى قول الشيعة الاثنا عشرية بإلهام أئمتهم الاثني عشر ، إلى القول
بعصمتهم ، فما يُلْهَمُونَهُ لا يتطرق إليه احتمال خطأ ، لأنه ليس ناشئاً عن
اجتهاد ، كسائر الأئمة ، يحتمل الصواب والخطأ ، ويؤجر فيه المُصِيب
مرتين ، والمُخْطِئ مرة واحدة ، إنما هو إلهام من الله للإمام يكشف له به
ما غاب عن غيره ، فهو الصواب حتماً ، سواء أكان خبراً أم حكماً . فإن
كان خبراً فهو الصدق ولا بد ، وإن كان حكماً فهو العدل لا وراء !

وبهذا أثبتوا عصمة لغير رسول الله ﷺ ، وأرجوا طاعة لغير الله ورسوله ،
على خلاف ما قرره محكمات القرآن الكريم ، وبيِّنات الحديث الشريف .

بل لقد بلغ الاعتداد بالإلهام الذي يُمنح لبعض الناس في بعض المواقف
أو القضايا : أن قال مَنْ قال من الغلاة والمنحرفين : إنَّ باب النبوة لم يُغلق ،
وإن الوحي الذي نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يكن هو
الوحي الأخير ، بل يمكن أن ينزل على غيره !

بل تطاول بعضهم في وقاحة وسفالة ، ممن ينتسب إلى فلسفة الإشراق ،
فقال لعنه الله : لقد حجّر ابن آمنة واسعاً حين قال : لا نبي بعدى !
واعتذر إلى الله وإلى رسوله من وقاحة العبارة وسوء أدبها ، وكل إناء
ينضح بما فيه !

* *

● لا عصمة لغير الكتاب والسنة :

ومن الواجب أن نقرر هنا بكل وضوح ويقين لا يعتريه ريب :

أنه لا عصمة لغير ما ثبت عن الله ورسوله . وكل أحد بعد ذلك يؤخذ من كلامه ويرد عليه . إن الله أمرنا أن نرجع في معرفة أحكام شرعه إلى كتابه تعالى وسنة نبيه ، وقال : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (٦) .

فلم يأمرنا أن نرجع إلى قلوبنا أو أذواقنا أو خواطرننا وما يكشف لنا ، فإن شيئاً من ذلك لا عصمة له ، وقد يصح مرة ولا يصح أخرى .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ، ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام (٧) .

ولهذا كان أول المحدثين الملهمين في هذه الأمة - وهو عمر بن الخطاب كما ثبت في الصحيحين - يرجع إلى القرآن والسنة ويحكمهما في كل ما يعرض له .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « كان عمر بن الخطاب وقافاً عند كتاب الله ، وكان أبو بكر الصديق يبين له أشياء تخالف ما يقع له ، كما بين له يوم

(١) الأعراف : ٣ (٢) النور : ٥٤ (٣) النور : ٥٤

(٤) الحشر : ٧ (٥) النور : ٦٣ (٦) النساء : ٥٩

(٧) نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه ، مجموع الفتاوى : ٩١/٢

الحديثية ، ويوم موت النبي - صلى الله عليه وسلم - ويوم قتال مانعى الزكاة ، وغير ذلك .

وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة ، فتارة يرجع إليهم ، وتارة يرجعون إليه ، وربما قال القول فترد عليه امرأة من المسلمين قوله ، وتُبَيِّن له الحق ، فيرجع إليها ، ويدع قوله .

وربما يرى رأياً فيذكر له حديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيعمل به ويدع رأيه ، وكان يأخذ بعض السُّنَّةِ ممن هو دونه في قضايا متعددة ، وكان يقول القول ، فيقال له : أحسنت ، فيقول : والله ما يدرى عمر أصاب الحق أم أخطأ !

فإذا كان هذا إمام المحدثين ، فكل ذى قلب يُحدثه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر ، فليس فيهم معصوم ، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم ، وإن كان طائفة تدعى أن الولي محفوظ ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة - والحكيم الترمذى قد أشار إلى هذا - فهذا باطل مخالف للسُّنَّةِ والإجماع .

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإن كانوا متفاضلين في الهدى ، والنور والإصابة .

ولهذا كان الصَّدِّيق أفضل من المحدث ، لأن الصَّدِّيق يأخذ من مشكاة النبوة ، فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً . أما المحدث فيقع له صواب وخطأ ، والكتاب والسُّنَّةُ تميز صوابه من خطئه ، وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسُّنَّةِ ، فما وافق آثار الرسول فهو الحق ، وما خالف ذلك فهو باطل ، وإن كانوا مجتهدين فيه ، والله تعالى يشيهم على اجتهدهم ، ويغفر لهم خطأهم .

ومعلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتداءً واتباعاً للآثار النبوية ، فهو أعظم إيماناً وتقوى » (١) . اهـ .



● نتائج الإلهام غير ثابتة ولا مطردة :

يؤكد ذلك أن الإلهام أو الكشف - كما قال صاحب « المنار » رحمه الله في تفسيره - إنما هو ضرب من إدراك النفس الناطقة ، غير ثابت ولا مطرد ، فليس بدليل عقلى ولا شرعى ، إنما هو إدراكات ناقصة تخطئ وتصيب ، وقد عرفت أسبابه الطبيعية ، وأن منها ما هو فطرى ، ومنها ما هو كسبى وصناعى ، كالتنويم المغناطيسى المعروف فى هذا العصر ، وما يسمونه قراءة الأفكار ، ومراسلة الأفكار ، ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الأسلاك الكهربائية وبدونها ، وهو يقع للمؤمن والكافر ، والبرِّ والفاجر ، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم ، كما يعترفون بتليس الشياطين عليهم فيه ، وقلة من يُمَيِّز بين الكشف الشيطانى والكشف الحقيقى منهم ، ولا يصح أن يُسمى حقيقياً إلا ما وافق نصاً قطعياً .

ومن دلائل الخطأ والتليس والتخيلات فى الكشف الذى يسمونه « النورانى » تعارض أهله وتناقضهم فيه ، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية . . . فترى بعضهم يذكر فى كشفه « جبل قاف » المحيط بالأرض ! و« الحية » المحيطة به ! كما تراه فى ترجمة الشعرانى للشيخ أبى مدين ، وهو من الخرافات التى لا حقيقة لها .

ومنهم من يذكر فى كشفه الأفلاك وكواكبها على الطريقة اليونانية الباطلة أيضاً ، وأكثرهم يذكرون فى كشفهم الأحاديث الموضوعة ، فإن اعترض عليهم - أو على المفتونين بكشفهم - علماء الحديث ، قالوا : إن الحديث قد

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢٢٦/٢ ، ٢٢٧

صح في كشفنا ، وإن لم يصح في رواياتكم ، وكشفنا أصح ، لأنه من علم
اليقين ، وعلمكم ظني !

والحاصل أن كشفاً هذا شأنه وشأن أهله ، إن صح أن نُصدِّقه فيما لا يخالف
الشرع وعقائده وأحكامه ، فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسُنَّة رسوله ، أن
يُصدِّق منه ما يخالفهما ، وأن يُثبت من أمر عالم الغيب ما لم يثبت بهما ،
وما أغنانا عن هذا كله (١) .



(١) تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا : ٤٤٧/١١ ، الطبعة الرابعة .

وقد ذكر العلامة الألوسي عن صاحب الفتوحات المكية في الباب (ص ٣٧١) من
أوصاف العرش وقوائمه وأنه أحد حملته ! وأنه أنزل عند أفضل قوائمه ! قال : وأطال
الكلام في هذا الباب ، وأتى فيه بالعجب العجيب ، وليس له - في أكثر ما ذكره فيه -
مستند نعلمه من كتاب الله تعالى ، أو سُنَّة رسوله ﷺ ومنه ما لا يجوز أن نقول
بظاهره . (انتهى من روح المعاني : ج ١٦ / ١٦١) .

٣ - ضلالة ازدراء العلم الشرعى

ومن ضلالات المعظمين للكشف والإلهام ، والقائلين بحجيته ، المؤمنين بقدسيته ، ازدراؤهم للعلم الشرعى : علم القرآن والسنة والفقه والأصول ، وما تفرّع عنها ، وتحقير أولئك الذين يذيبون شموع أعمارهم فى طلبه وتحصيله ، والتعمق فيه ، مستغنين بكشفهم المزعوم عن السعى لتلقى العلم من أهله ، جاهلين أو متجاهلين : أن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا أممهم العلم ، وأن « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) ، كما نطق بذلك حديث المعصوم ، وكما أجمعت عليه الأمة .

والعلم المفروض طلبه هنا هو علم النبوة ، الذى به يُعرف الله سبحانه ، ويُعرف الطريق إليه ، ويُعرف ما يحبه وما يكرهه ، ولا طريق لذلك إلا معرفة الشريعة التى جاء بها محمد ﷺ . وبها يعرف المسلم دينه ، ويصحح عقيدته وعبادته ويضبط سلوكه .

فالعلم بشرع الله تعالى ، كما نزل به وحيه إلى رسوله فى كتابه وسُنَّته ، هو الدليل المعصوم الذى لا يخطئ ولا ينسى .

وهو - كما قال ابن القيم - تركة الأنبياء ، وراثتهم ، وأهله عصبتهم ووراثتهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيرين ، وهو الميزان الذى به تورن الأقوال والأعمال والأحوال .

(١) روى من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة بأسانيد ضعيفة ، ولذا صححه السيوطى لغيره كما فى « فيض القدير » ، وصححه من المعاصرين الألبانى أيضاً فى تخريج كتابنا « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » ص ٨٦ ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٩١٣ ، ٣٩١٤) .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغنى والرشاد ، والهدى والضلال ، به يُعرف الله ويُعبد ، ويُذكر ويُوحَّد ، ويُحمد ويُمجَّد ، وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون .

به تُعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال من الحرام ، وبه تُوصل الأرحام ، وبه تُعرف مراضى الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو إمام والعمل مأموم ، وهو قائد والعمل تابع ، وهو الصاحب فى الغربة ، والمُحدث فى الخلوة ، والأنيس فى الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذى لا فقر على مَنْ ظفر بكنزهِ ، والكنف الذى لا ضيعة على مَنْ أوى إلى حرره .

مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعديل الصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الإمام أحمد - رضى الله عنه - : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه .

وروينا عن الشافعى - رضى الله تعالى عنه - أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ، ونص على ذلك أبو حنيفة رضى الله عنه .

وقال ابن وهب : كنت بين يدى مالك - رضى الله عنه - فوضعت ألواحى وقمت أصلى ، فقال : ما الذى قمتَ إليه بأفضل مما قمتَ عنه . . . ذكره ابن عبد البر وغيره .

واستشهد الله - عزَّ وجلَّ - بأهل العلم على أجلِّ مشهود به وهو « التوحيد » ،

وقرن شهادتهم بشهادته ، وشهادة ملائكته (١) ، وفي ضمن ذلك تعديلهم ،
وأنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح .

ومن ههنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف : « يحمل هذا العلم من
كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل
الجاهلين » (٢) .

وهو حُجَّةُ الله في أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ،
ومُذْنِبهم من كرامته . ويكفي في شرفه : أن فضل أهله على العباد كفضل
القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن الملائكة لتضع لهم أجنتها ،
وتظلمهم بها ، وأن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى
الحيتان في البحر ، وحتى النمل في جحرها ، وأن الله وملائكته يصلون على
معلمي الناس الخير .

ولقد رحل كلیم الرحمن موسى بن عمران - عليه الصلاة والسلام - في
طلب العلم هو وقتاه ، حتى مسَّهما النَّصَبُ في سفرهما في طلب العلم ،
حتى ظفر بثلاث مسائل ، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به .

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٣) ،
وحرمَّ الله صيد الجوارح الجاهلة ، وإنما يُباح للأمة صيد الجوارح العالمة ، فهكذا
جوارح الإنسان الجاهل لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شيئاً (٤) . ا هـ .

* *

(١) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ
قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران : ١٨) .

(٢) رواه البيهقي في سننه ، وقواه ابن القيم في « مفتاح دار السعادة » . انظر :
تخريجنا له في كتابنا « كيف نتعامل مع السنة النبوية » .

(٣) طه : ١١٤ (٤) مدارج السالكين : ٤٦٩/٢ ، وما بعدها .

● الصوفية الأولون ملتزمون باتباع الشريعة :

ولا غرو أن وجدنا من سادات الصوفية مَنْ أنكر على المنحرفين هذه
الدعاوى العريضة التي رعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسُّنة .
ونذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم في « مدارج السالكين » عن المعتدلين من
أكابر شيوخهم :

« قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله : الطرق كلها
مسدودة على الخلق إلا على مَنْ اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : مَنْ لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يُقتدى به في هذا
الامر ، لأن علمنا مُقيّد بالكتاب والسُّنة .

وقال : مذهبنا هذا مُقيّد بأصول الكتاب والسُّنة .

وقال أبو حفص - رحمه الله - : مَنْ لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت
بالكتاب والسُّنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يُعد في ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - : ربما يقع في قلبى النكتة من
نكت القوم أياماً ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسُّنة .

وقال أبو زيد : عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئاً أشد
على من العلم ومتابعته ..

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالصلاح
لتزوره ، فلما دخلا عليه المسجد تنخع ، ثم رمى بها نحو القبلة ، فرجع فلم
يُسَلِّم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - ، فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه ؟

وقال : لقد هممتُ أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة النساء ، ثم قلت :
كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - ؟ ولم أسأله ، ثم إن الله كفانى مؤنة النساء ، حتى لا أبالى
استقبلتنى امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتكم إلى رجل أُعطى من الكرامات إلى أن يرتفع فى الهواء ،
فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجذونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ،
وآداب الشريعة !

وقال أحمد بن أبى الحوارى - رحمه الله - : مَنْ عمل عملاً بلا اتباع
سُنَّة ، فباطل عمله ^(١) .

قال ابن القيم : « وأما الكلمات التى تُروى عن بعضهم : من التزهيد فى
العلم ، والاستغناء عنه ، كقول مَنْ قال : « نحن نأخذ علمنا من الحى
الذى لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حى يموت » !

وقول الآخر - وقد قيل له : ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟
فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق ، مَنْ يسمع من الخلاق ؟

وقول الآخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله عزَّ وجلَّ !

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفى يشتغل بـ « أخبرنا » و « حدثنا » فاغسل
يدك منه !

وقول الآخر : لنا علم الحرق ، ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التى أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلاً يُعذر
بجهله ، أو شاطحاً معترفاً بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ،
ولولا « أخبرنا » و « حدثنا » لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام .

ومَنْ أحالك على غير « أخبرنا » و « حدثنا » فقد أحالك : إما على خيال
صوفى ، أو قياس فلسفى ، أو رأى نفسى ، فليس بعد القرآن و « أخبرنا »

(١) مدارج السالكين : ٢ / ٤٦٤ - ٤٦٥

« حَدَّثَنَا » إِلَّا شَبَهَاتِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَآرَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ ، وَخَيَالَاتِ الْمُتَصَوِّفِينَ ،
وَقِيَاسِ الْمُتَفَلِّسِينَ . وَمَنْ فَارَقَ الدَّلِيلَ ، ضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ، وَلَا دَلِيلَ
إِلَى اللَّهِ وَالْجَنَّةِ ، سِوَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَكُلَّ طَرَقٍ لَمْ يَصْحَبْهَا دَلِيلُ الْقُرْآنِ
وَالسُّنَّةِ فَهِيَ مِنْ طَرَقِ الْجَحِيمِ ، وَالشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ « (١) .

* *

● العلم اللدني :

أما العلم اللدني الذي طنطن به بعضهم ، ورغم الاستغناء به عن العلم
الكسبي ، فقد قال فيه ابن القيم في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في
« منازل السائرين » :

« العلم اللدني » هو العلم الذي يقذفه الله في القلب بلا سبب من العبد ،
ولا استدلال ، ولهذا سمي لدنياً . قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، ولكن هذا العلم أخص من غيره ، ولذلك أضافه إليه
سبحانه ، كبيته وناقته وبلده وعبد ، ونحو ذلك . فتضمن محل العلوم المستندة
إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدني ، الحاصل بلا سبب ولا استدلال ،
هذا مضمون كلامه (يعني الهروي صاحب « المنازل ») .

قال ابن القيم : « ونحن نقول : إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة ، هو
العلم الحقيقي ، وأما ما يُدعى حصوله بغير شاهد ولا دليل ، فلا وثوق به
(وليس بعلم) . نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد ، بحيث
يصير المعلوم كالمشهود ، والغائب كالمعاني ، وعلم اليقين كعين اليقين ،
فيكون الأمر شعوراً أولاً ، ثم تجويزاً ، ثم ظناً ، ثم علماً ، ثم معرفة ، ثم
علم يقين ، ثم حق يقين ، ثم عين يقين ، ثم تضمن محل كل مرتبة في التي
فوقها ، بحيث يصير الحكم لها دونها ، فهذا حق .

(٢) العلق : ٥

(١) مدارج السالكين : ٤٦٨/٢

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال ، فليس بصحيح ، فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها ، كما ربط الكائنات بأسبابها ، ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدلّه عليه ، وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي دلّتهم على أن ما جاءوا به هو من عند الله ، ودلّت أمهم على ذلك . وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله ، وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأمم . فالأدلة والشواهد التي كانت لهم ، ومعهم : أعظم الشواهد والأدلة ، والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد ، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها ، وحكم لا برهان عند قائله . وما كان كذلك لم يكن علماً ، فضلاً عن أن يكون لدنياً .

فالعلم اللدني : ما قام الدليل الصحيح عليه ، أنه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود .

وقد انبثق سد العلم اللدني ، ورخص سعره ، حتى ادّعت كل طائفة أن علمهم لدني . وصار من تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له ، ويلقيه شيطانه في قلبه ، يزعم أن علمه لدني !! فملاحدة الاتحادية ، وزنادقة المتيمين إلى السلوك يقولون : إن علمهم لدني ! وقد صنّف في العلم اللدني متهوكون المتكلمين ، وزنادقة المتصوفين ، وجهلة المتفلسفين ، وكلّ يزعم أن علمه لدني ! وصدقوا وكذبوا ، فإن « اللدني » منسوب إلى « لدن » بمعنى « عند » فكانهم قالوا : العلم العندي ، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه ، وقد ذمّ الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ

(١) آل عمران : ٧٨

الله ﴿ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (٢) ، فكل مَنْ قَالَ : هذا العلم من عند الله - وهو كاذب في هذه النسبة - فله نصيب وافر من هذا الذم . وهذا في القرآن كثير ، يذم الله سبحانه مَنْ أضاف إليه ما لا علم به ، وَمَنْ قَالَ عليه ما لا يعلم . ولهذا رتب سبحانه المحرّمات أربع مراتب ، وجعل أشدها القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرّمات التي لا تُباح بحال (٣) ، بل هي محرّمة في كل ملّة ، وعلى لسان كل رسول ، فالقائل : إن هذا « علم لدني » لما لا يعلم به من عند الله ، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده : كاذب مفترٍ على الله ، وهو من أظلم الظالمين ، وأكذب الكاذبين (٤) .

على أن كثيراً من الصوفية المتأخرين رفضوا حجية الإلهام .

قال العلامة الألوسي في تفسيره عند قصة الخضر من سورة الكهف : « ومن صرح بأن الإلهام ليس بحجّة من الصوفية : الإمام الشعراني ، وقال : قد رلّ في هذا الباب خلق كثير فضّلوا وأضلّوا ، ولنا في ذلك مؤلف سمّيته « حد الحسام في عنق مَنْ أطلق إيجاب العمل بالإلهام » وهو مجلد لطيف (٥) . اهـ .

فمن احتج بالإلهام على حكم شرعي فاحتجاجة مردود عليه (٦) .

وستنقل الكثير عن المعتدلين من الصوفية فيما بعد .

* * *

(١) البقرة : ٧٩

(٢) الأنعام : ٩٣

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) .

(٤) مدارج السالكين : ٤٣١/٣ - ٤٣٣ (٥) روح المعاني للألوسي : ١٧/١٦

(٦) قال العلامة ابن حجر الهيتمي الشافعي في « التحفة » : « وقع لليافعي - مع =

٤ - التفرقة بين الشريعة والحقيقة

إن اعتداد كثير من الصوفية بأذواقهم وخواطر نفوسهم ، وما يعرض لهم من إلهام وكشف ، وادعاء بعضهم العصمة لهذه الإلهامات والخواطر ، قد انتهى بطائفة منهم إلى الوقوع فى ضلالات عدة .

فمنها : تفرقتهم بين « الشريعة » التى يجىء بها النص ، و« الحقيقة » التى يجىء بها الكشف ، واعتبارهم الأولى من نصيب العوام ، والثانية من حظ

= جلالة - فى روضه : لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبس ثوب حرير مثلاً ، وعلم الإذن يقيناً ، فلبسه ، لم يكن منتهكاً للشرع ، وحصول اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله الغلام ، إذ هو ولى لا نبيّ على الصحيح . أ هـ .

قال : وقوله : « مثلاً » ربما يدخل فيه بعض المتصوفة الذى ذكره الغزالي « أن له مع الله حالاً أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم شرب الخمر . . . » إلخ .

وبفرض أن اليافعى لم يرد بـ « مثلاً » إلا ما هو مثل الحرير فى أن استحلاله غير مكفر ، لعدم علمه ضرورة ، فإن أراد بعدم انتهاكه للشرع : أن له نوع عذر ، وإن كنا نقضى عليه بالإثم ، بل والفسق إن أراد ذلك ، فله نوع اتجاه .

أو أنه لا حرمة عليه فى لبسه ، كما هو الظاهر من سياق كلامه فهو رلة منه ، لأن ذلك اليقين إنما يكون بالإلهام ، وهو ليس بحجة عند الأئمة ، إذ لا ثقة بخواطر من ليس بمعصوم .

وبفرض أنه حجة ، فشرطه - عند من شذّ بالقول به - ألا يعارضه نص شرعى ، كالنص بمنع لبس الحرير المجمع عليه ، إلا من شذّ عن لا يعتد بخلافه فيه .

وبتسليم أن الخضر ولى - وإلا فالأصح أنه نبيّ - فمن أين لنا أن الإلهام لم يكن حجة فى ذلك الزمن ؟

وبفرض أنه غير حجة ، فالأنبياء ، فى زمنه موجودون ، فلعل الإذن فى قتل الغلام جاء إليه على يد أحدهم (انتهى من تحفة المحتاج لابن حجر الهيئى : ٨٤/٤) .

الخواص ، وما يقولونه في ذلك : مَنْ نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ،
وَمَنْ نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم !

وقد يُعتبر العمل معصية بل كبيرة في نظر أهل الشريعة ، على حين يُعدّ
مباحاً بل قُرْبَةً في نظر أهل الحقيقة !

* *

● قصة موسى والخضر :

ويستدلون على هذه التفرقة بقصة موسى والخضر ، التي ذكرها الله في
سورة الكهف . فقد كان موسى ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة ،
وقَتْلَ الغلام بغير جناية ، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراماً ولا معونة .
وكان الخضر ينظر بعين الحقيقة ، ولهذا بيّن لموسى ما وراء كل فعلة من هذه
الفعلات من أسرار وغيوب ، فسَلَّمَ موسى للخضر : لأن موسى لم يكن معه
إلا علم الظاهر ، علم الشريعة ، والخضر معه علم الباطن ، وهو علم
الحقيقة .

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم ولا اكتساب ، إنما هو علم
وهبى من لدُن الله مباشرة وبلا واسطة ، ويسمونه « العلم اللدني » أخذاً من
قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ (١) .

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع ، الذي يُعرف من
النصوص ، ويطلب من العلماء ، ويروى بالأسانيد ، ويسمونه « علم الورق » .
وإنما يعنيه علم « الباطن » أو « الحقيقة » أو « العلم اللدني » كما يسمونه ،
علم الخضر لا علم موسى ، علم « أصحاب الأذواق » لا علم « أصحاب
الأوراق » . علم الصوفية لا علم المحدثين والفقهاء .

بل قال بعضهم : إن العلم حجاب بين صاحبه وبين الله !!

(١) الكهف : ٦٥

ولا ريب أن هذا جهل مبین ، وغرور قبیح ، وشروء عن الصراط المستقیم ، الذى سار علیه رسول الله - صلى الله علیه وسلم - وأصحابه الكرام ، ومن تبعهم بإحسان ، بل سار علیه سادة الصوفية الأوائل أنفسهم .
وقد بین الإمام الشاطبى فى « الموافقات » أن الشريعة عامة لكل المكلفين فى كل الأحوال .

فلا يخرج عنها ولى ولا غيره بدعوى الكشف أو غيره ، وأن العوائد الجارية ضرورة الاعتبار شرعاً ، فليس الاطلاع على المغيبات ولا الكشف الصحيح بالذى يمنع جريانها على مقتضى الأحكام العادية . والقدوة فى ذلك رسول الله - صلى الله علیه وسلم - ثم ما جرى علیه السلف الصالح رضى الله عنهم .

ثم تعرض لقصة « الخضر » التى يحتج بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة لمن سموهم الأولياء ، أو أهل الكشف ، وقد نقلنا قوله فى ردنا على القول بحجية الإلهام .

وهم يسمون صاحب العلم الشرعى « عالماً » ويسمون صاحب الكشف الصوفى « عارفاً » ، فالعلم عندهم كسبى استدلالى ، و« المعرفة » وهى ضرورة - وهى العلم اللدنى - والعلم له الخبر ، والمعرفة لها العيان .

ومثال هذا : أنك إذا رأيت فى حومة ثلج ثقباً خالياً ، استدلت به على أن تحته حيواناً يتنفس ، فهذا علم . فإذا حفرتة وشاهدت الحيوان ، فهذه معرفة .

ولا مشاحة فى الاصطلاح ، فلكل طائفة أن تصطلح على ما تفاهم به ، بشرط أن تتضح المدلولات ، وتتحدد المفاهيم ، ولكن الخطر هنا هو تحقير « العالم » وتقديس « العارف » ، أو اعتبار ما يجىء من طريق المعرفة معصوماً ، وما يجىء من طريق العلم مظنوناً أو مرفوضاً .

وذلك كقول بعض المنحرفين : « العالم يُسعطك الخلل والخردل ، والعارف ينشئك المسك والعنبر » !

قال : ومعنى هذا : أنك مع العالم فى تعب ، ومع العارف فى راحة ، العارف ييسط عذر العوالم والخلاتق ، والعالم يلوم . وقد قيل : مَنْ نظر إلى الخلق بعين « العلم » مقتهم ، وَمَنْ نظر إليهم بعين « المعرفة » عذرهم !! (١) .

يقول الإمام ابن القيم معقياً على هذا الكلام الخطير :

« فانظر ما تضمنه هذا الكلام - الذى ملمسه ناعم ، وسمه زعاف قاتل - من الانحلال عن الدين ، ودعوى الراحة من حكم العبودية ، والتماس الأعذار لليهود والنصارى وعِبَادِ الأوثان ، والظلمة والفجرة ، وأن أحكام الأمر والنهى - الواردين على ألسن الرسل - للقلوب بمنزلة سعط الخلل والخردل ، وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلاتق ، والوقوف عليها ، والانقياد لحكمها ، بمنزلة تنشيق المسك والعنبر .

فليهن الكفارَ والفجارَ والفساقَ ، انتشاقُ هذا المسك والعنبر إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها !

ويا رحمة للأبرار المحكمين لما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من كثرة سعطهم بالخلل والخردل !

فإن قوله - صلى الله عليه وسلم - هذا يجوز ، وهذا لا يجوز . . وهذا حلال وهذا حرام ، وهذا يُرضى الله ، وهذا يُسخطه : نخل وخردل عند هؤلاء الملاحدة ، وإلا فالحقيقة تُشهدك الأمر بخلاف ذلك .

(١) أذكر أنى قرأت هذا النص فى قسم التصوف من كتاب « الإشارات والتنبيهات » لابن سينا .

ولذلك إذا نظرت - عندهم - إلى الخلق بعين الحقيقة عذرت الجميع .
فتعذر مَنْ توعَّده الله ورسوله أعظم الوعيد ، وتهدده أعظم التهديد .
ويا لله العجب ! إذا كانوا معذورين في الحقيقة ، فكيف يُعَذَّب الله سبحانه
المعذور ، ويُذيقه أشد العذاب ؟
وهلا كان الغنى الرحيم أولى بعذره من هؤلاء ؟ اهـ (١) .



● كلام الألوسي :

ومن المتأخرين الذين عنوا بدراسة موضوع الإلهام : العلامة شهاب الدين
الألوسي ، وذلك في تفسيره المعروف باسم « روح المعاني » ، وفي سورة
الكهف عند ذكر قصة الخضر عليه السلام ، ونقل نقولاً مهمة في الموضوع عن
الصوفية المعتبرين ، يحسن بنا أن نسجلها هنا .

قال رحمه الله : « استدلل بقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ (٢) القائلون
بنبوته - أي الخضر - عليه السلام ، وهو ظاهر في ذلك ، واحتمال أن يكون
هناك نبي أمره بذلك عن وحى - كما زعمه القائلون بولايته - احتمال بعيد ،
على أنه ليس في وصفه بقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن
لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٣) على هذا كثير فائدة .

بل قد يقال : أي فائدة في هذا العلم اللدني إذا احتاج في إظهار العجائب
لموسى عليه السلام إلى توسط نبي مثله .

وقال بعضهم : كان ذلك عن إلهام ، ويلزمه القول بأن الإلهام كان حجة
في بعض الشرائع ، وأن الخضر من المكلفين بتلك الشريعة ، وإلا فالظاهر أن
حجيته ليست في شريعة موسى عليه السلام ، وكذا هو ليس بحجة في

(١) مدارج السالكين : ١٦٧/٣ (٢) الكهف : ٨٢ (٣) الكهف : ٦٥

شريعتنا على الصحيح ، ومن شدّد وقال بحجّيته : اشترط لذلك أن لا يعارضه نص شرعى . فلو أطلع الله تعالى بالإلهام بعض عباده ، على نحو ما أطلع عليه الخضر عليه السلام من حال الغلام ، لم يحل له قتله .

وما أخرجه الإمام أحمد عن عطاء أنه قال : كتب نجدة الحرورى إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب إليه : « إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم » ، إنما قصد به ابن عباس - كما قال السبكي - الحاجة والإحالة على ما لم يمكن ، قطعاً لطمعه فى الاحتجاج بقصة الخضر ، وليس مقصوده رضى الله تعالى عنه : أنه إن حصل ذلك يجوز القتل . .

فما قاله اليافعى فى روضه من أنه لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبس ثوب حرير مثلاً ، وعلم الإذن يقيناً قلبه ، لم يكن منتهكاً للشرع ، وحصول اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله للغلام ، إذ هو ولى لا نبى على الصحيح . اهـ . - عشرة يكاد أن لا يقال لصاحبها : لعا ، لأن مظنة حصول اليقين اليوم الإلهام ، وهو ليس بحُجّة عند الأئمة ، ومن شدّد اشترط ما اشترط ، وحصوله بخبر عيسى عليه السلام إذا نزل متعذر ؛ لأنه عليه السلام ينزل بشريعة نبينا ﷺ ، ومن شريعته تحريم لبس الحرير على الرجال إلا للتداوى . وما ذكره من نفى نبوة الخضر لا يُعوّل عليه ولا يلتفت إليه .

قال الألوسى : ومن صرّح بأن الإلهام ليس بحُجّة من الصوفية الإمام الشعرانى وقال : قد رُلّ فى هذا الباب خلق كثير فضلّوا وأضلّوا ، ولنا فى ذلك مؤلف سمّيته « حد الحسام فى عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام » ، وهو مجلد لطيف . اهـ .

وقال أيضاً فى كتابه المسمى بـ « الجواهر والدرر » : قد رأيت من كلام الشيخ محبى الدين قدّس سره ما نصه : اعلم أنا لا نعى بملك الإلهام حيث أطلقناه إلا الدقائق الممتدة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة ، فإن المَلَك لا ينزل بوحي محل غير قلب نبى أصلاً ، ولا يأمر بأمر إلهى جملة واحدة ،

فإن الشريعة قد استقرت وتبين الفرض والواجب وغيرهما ، فانقطع الأمر الإلهي بانقطاع النبوة والرسالة ، وما بقي أحد يأمره الله تعالى بأمر يكون شرعاً مستقلاً يُتَعَبَدُ به أبداً ؛ لأنه إن أمره بفرض كان الشارع قد أمر به ، وإن أمر بمباح فلا يخلو إما أن يكون ذلك المباح المأمور به صار واجباً أو مندوباً في حقه ، فهذا عَيْنُ نسخ الشرع الذي هو عليه ، حيث صيرَّ المباح الشرعي واجباً أو مندوباً ، وإن أبقاه مباحاً كما كان ، فأى فائدة للأمر الذي جاء به مَلَكُ الإلهام لهذا المدعى ؟! فإن قال : لم يجئني مَلَكُ الإلهام بذلك ، وإنما أمرني الله تعالى بلا واسطة قلنا : لا يُصَدَّقُ في مثل ذلك ، وهو تلييس من النفس ، فإن ادعى أن الله سبحانه كلمه كما كلم موسى عليه السلام فلا قائل به ، ثم إنه تعالى لو كلمه ما كان يلقي إليه في كلامه إلا علوماً وأخباراً ، لا أحكاماً وشرعاً ولا يأمره أصلاً . اهـ .



● من كلمات مجدد الألف الثاني :

قال الآلوسي وقد صرح الإمام الرباني مجدد الألف الثاني (١) في « المكتوبات » في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يُحَلُّ حراماً ولا يُحرَّمُ حلالاً ، ويُعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة ، والظاهر والباطن ، وكلامه - قُدَّسَ سره - في « المكتوبات » طافح بذلك .

ففي المكتوب الثالث والأربعين من الجلد الأول :

أن قوماً مالوا إلى الإلحاد والزندقة ، يتخيلون أن المقصود الأصلي وراء الشريعة ، حاشا وكلا ، ثم حاشا وكلا . نعوذ بالله سبحانه من هذا الاعتقاد

(١) هو الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، مجدد الإسلام في الهند في عصره ، والمؤثر في ملوكها ، ومغير طريقتهم من الانحراف عن الإسلام والعداء له إلى الولاء له والالتزام بأحكامه ، ذكره الشيخ أبو الحسن الندوي في رسالته « نحو منهج أفضل للإصلاح » ، وذكره المودودي في رسالة « موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه » ، وترجم له الزركلي في الأعلام (توفي سنة ١٠٣٤ هـ - ١٦٢٥ م) .

السوء ، فكل من الطريقة والشرعية عَيْن الآخر ، لا مخالفة بينهما بقدر رأس الشعيرة ، وكل ما خالف الشرعية مردود ، وكل حقيقة ردتها الشرعية فهي زندقة !

وقال في أثناء المکتوب الحادى والأربعين من المجلد الأول أيضاً فى مبحث الشرية والطريقة والحقيقة : مثلاً عدم نطق اللسان بالكذب شريعة ، ونفى خاطر الكذب عن القلب ؛ إن كان بالتكلف والتعمل فهو طريقة ، وإن تيسر بلا تكلف فهو حقيقة . ففى الجملة : الباطن - الذى هو الطريقة والحقيقة - مكمل الظاهر ، الذى هو الشرية . فالسالكون سبيل الطريقة والحقيقة إن ظهر منهم فى أثناء الطريق أمور ظاهرها مخالف للشرية ومناف لها ، فهو من سكر الوقت ، وغلبة الحال ، فإذا تجاوزوا ذلك المقام ورجعوا إلى الصحو ، ارتفعت تلك المناقاة بالكلية ، وصارت تلك العلوم المضادة بتمامها هباءً منثوراً .

وقال - نفعنا الله تعالى بعلومه - فى أثناء المکتوب السادس والثلاثين من المجلد الأول أيضاً :

للشرية ثلاثة أجزاء : علم وعمل وإخلاص ، فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشرية ، وإذا تحققت الشرية حصل رضا الحق سبحانه وتعالى ، وهو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية ، ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (١) ، فالشرية متكفلة بجميع السعادات ، ولم يبق مطلب وراء الشرية ، فالطريقة والحقيقة اللتان امتار بهما الصوفية كلتاها خادمات للشرية فى تكميل الجزء الثالث ، الذى هو الإخلاص ، فالمقصود منهما تكميل الشرية لا أمر آخر وراء ذلك إلى آخر ما قال .

وقال عليه الرحمة فى أثناء المکتوب التاسع والعشرين من المجلد المذكور بعد تحقيق كثير :

(١) التوبة : ٧٢

فتقرر أن طريق الوصول إلى درجات القرب الإلهي - سواء أكان قُرب النبوة أو قُرب الولاية - منحصر في طريق الشريعة التي دعا إليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار مأموراً بها في آية : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (١) ، وآية : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢) تدل على ذلك أيضاً ، وكل طريق سوى هذا الطريق ضلال ، ومنحرف عن المطلوب الحقيقي ، وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة ، وشاهد ذلك آية : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ (٣) ، وآية : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (٤) ، وآية : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ (٥) ، وحديث : « خط لنا النبي ﷺ » الخبر (٦) ، وحديث : « كل بدعة ضلالة » (٧) ، وأحاديث أخر إلى آخر ما قال عليه رحمة الملك المتعال .

-
- (١) يوسف : ١٠٨ (٢) آل عمران : ٣١
- (٣) تمتها : ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) .
- (٤) يونس : ٣٢
- (٥) تمتها : « فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .
- (٦) يشير إلى حديث ابن مسعود : « خط لنا رسول الله ﷺ خطأ ، ثم قال : « هذا سبيل الله » ، ثم خط خطوطاً عن يمينه ، وعن شماله ، ثم قال : « وهذه سبيل (متفرقة) على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ . . . الآية » ، رواه أحمد (٤١٤٢) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، ورواه الحاكم : ٢/٢٣٩ ، وصححه ووافقه الذهبي .
- (٧) جزء من حديث العرياض بن سارية المعروف الذي رواه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي ، وقال : حسن صحيح (٢٦٧٨) ، وابن ماجه (٤٢) ، وابن حبان (الاحسان : ٥) ، والحاكم (٩٥/١ - ٩٧) كما رواه أحمد : ١٢٦/٤ ، ١٢٧ ، وهو من أحاديث الأربعين النووية . الحديث الثامن والعشرون (١٠٩/٢) .

وقال قُدّس سره فى معارف الصوفية :

« اعلم أن معارف الصوفية وعلومهم فى نهاية سيرهم وسلوكهم ، إنما هى علوم الشريعة ، لا أنها علوم آخر غير علوم الشريعة ، نعم يظهر فى أثناء الطريق علوم ومعارف كثيرة ، ولكن لا بد من العبور عنها . ففى نهاية النهايات علومهم علوم العلماء ، وهى علوم الشريعة » .

وقال أيضاً : « اعلم أن الشريعة والحقيقة متحدان فى الحقيقة ، ولا فرق بينهما إلا بالإجمال والتفصيل ، وبالاستدلال والكشف ، وبالغيب والشهادة ، وبالتعمّل وعدم التعمّل . وللشريعة من ذلك الأول ، وللحقيقة الثانى . علامة الوصول إلى حقيقة حق اليقين : مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها ، وما دامت المخالفة موجودة ولو أدنى شعرة فذلك دليل على عدم الوصول . وما وقع فى عبارة بعض المشايخ من أن الشريعة قشر والحقيقة لبّ فهو - وإن كان مشعراً بعدم استقامة قائله - ولكن يمكن أن يكون مراده أن المجمال بالنسبة إلى المفصل حكمه حكم القشر بالنسبة إلى اللبّ ، وأن الاستدلال بالنسبة إلى الكشف كذلك ، والأكابر المستقيمة أحوالهم لا يُجوزون الإتيان بمثل هذه العبارات الموهمة » . اهـ .



● من كلمات كبار الصوفية :

قال الألوسى : وقال سيدى القطب الربانى الشيخ عبد القادر الكيلانى : جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله تعالى ورسوله ﷺ ، ولا يعملون إلا بظاهرهما .

وقال سيد الطائفة الجنيد : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال أيضاً : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به فى هذا العلم ؛ لأن علمنا مُقيّد بالكتاب والسنة .

وقال السرى السقطى : التصوف اسم لثلاثة معان وهو : لا يطفىء نور معرفته نورَ ورعه ، ولا يتكلم بسر باطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله .

وقال أيضاً قدّس سره : مَنْ ادَّعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم ، فهو غالط .

وقال أبو الحسين النورى : مَنْ رأته يدَّعى مع الله تعالى حالة تُخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربه ، وَمَنْ رأته يدَّعى حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه .

وقال أبو سعيد الخراز : كل فيض باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

وقال أبو العباس أحمد الدينورى : لسان الظاهر لا يُغيّر حكم الباطن .

وفى التحفة لابن حجر : قال الغزالى : مَنْ زعم أن له مع الله تعالى حالاً أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم شرب الخمر وجب قتله ، وإن كان فى الحكم بخلوده فى النار نظر ، وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر ؛ لأن ضرره أكثر ! قال ابن حجر الهيثمى : ولا نظر فى خلوده ؛ لأنه مرتد لاستحلاله ما علّمت حرّمته ، أو نفيه وجوب ما علّم وجوبه ضرورة فيهما ، ومن ثمّ جزم فى الأنوار بخلوده .

وقال فى الإحياء : مَنْ قال إن الباطن يخالف الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان ، إلى غير ذلك . وفى رسالة القشيرى طرف منه .

قال الألوسى : والذى ينبغى أن يُعلم أن كلام العارفين المحققين ، وإن دل على أنه لا مخالفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى الحقيقة ، لكنه يدل أيضاً على أن فى الحقيقة كشوفاً وعلوماً غيبية ، ولذا تراهم يقولون : علم الحقيقة هو العلم اللدنى ، وعلم المكاشفة ، وعلم الموهبة ، وعلم الأسرار ، والعلم المكنون ، وعلم الوراثة ، إلا أن هذا لا يدل على المخالفة ، فإن الكشف والعلوم الغيبية ثمرة الإخلاص ، الذى هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة ، فهى بالحقيقة مترتبة على الشريعة ونتيجة لها ، ومع هذا لا تغير تلك الكشف

والعلوم الغيبية حكماً شرعياً ، ولا تُقَيَّد مطلقاً ، ولا تُطْلَق مُقَيَّداً ، خلافاً لما توهمه « ساجقلى راده » ، حيث قال فى شرح عبارة « الإحياء » السابقة آنفاً : يريد الغزالى من الباطن ما ينكشف لعلماء الباطن من حلِّ بعض الأشياء لهم ، مع أن الشارع حرَّمه على عباده مطلقاً ، فيجب أن يقال : إنما انكشف حلُّه لهم لما انكشف لهم من سبب خفى يُحلِّله لهم ، وتحريم الشارع تعالى ذلك على عباده مُقَيَّد بانتفاء انكشاف السبب المحلِّل لهم ، فمن انكشف له ذلك السبب حلَّ له ، ومن لا فلا !

لكن الشارع سبحانه حرَّمه على عباده على الإطلاق ، وترك ذلك القيد لندرة وقوعه ، إذ من ينكشف له قليل جداً . مثاله : انكشاف محلل خرق السفينة ، وقتل الغلام ، للخضر عليه السلام ، فحلَّ له بذلك الانكشاف الخرق والقتل ، وحلُّهما له مخالف لإطلاق نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمته عن الضرر ، وعن قتل الصبى ، لكنهما مُقَيَّدان ، فالأول مُقَيَّد بما إذا لم يعلم هناك غاصب مثلاً ، والثانى بما إذا لم يعلم أن الصبى سيصير ضالاً مضللاً ، لكن الشارع ترك القيدين لندرة وقوعهما ، واعتماداً على فهم الراسخين فى العلم إياهما إلى آخر ما قال ، فإن النصوص السابقة تنادى بخلافه كما سمعت .

ثم إن تلك الغيوب والمكاشفات ، بل سائر ما يحصل للصوفية من التجليات ، ليست من المقاصد بالذات ، ولا يقف عندها الكامل ، ولا يلتفت إليها ، وقد ذكر الإمام الربانى فى المکتوب السادس والثلاثين المتقدم نقل بعضه : أنها تُربى بها أطفال الطريق ! وأنه ينبغى مجاوزتها ، والوصول إلى مقام الرضا ، الذى هو نهاية مقامات السلوك ، وهو عزيز لا يصل إليه إلا واحد من ألوف ، ثم قال : إن الذين هم قليلو النظر يعدون الأحوال والمواجيد ، من المقامات والمشاهدات والتجليات من المطالب ، فلا جرَم بقوا فى قيد الوهم والخيال ، وصاروا محرومين من كمالات الشريعة . .

﴿ كَبَّرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١) . آه .

● موقف الكاملين في الشريعة :

قال العلامة الآلوسی : ويُعلم منه أن الكاملين في الشريعة يعبرون على ذلك ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يعدونه مقصداً ، وجلَّ مقصدهم تحصيل مقام الرضا .

وقد يُحجب الكامل عن جميع ذلك ، ويلحق من هذه الحيثية بعوام الناس ، ويُعلم مما ذكر أن موسى عليه السلام أكمل من الخضر ، وأعلمية الخضر عليه السلام بعلم الحقيقة ، كانت بالنسبة إلى الحالة الحاضرة ، فإن موسى عليه السلام عبر على ذلك ، ولم يقف عنده ؛ لأنه في مقام التشريع ، ولعل طلبه التعليم كان بالأمر ابتلاءً له بسبب تلك الفتنة .

وقد ذكروا : أن الكامل كلما كان صعوده أعلى ، كان هبوطه أنزل ، وكلما كان هبوطه أنزل ، كان في الإرشاد أكمل ، وفي الإفاضة أتم ، لمزيد المناسبة حينئذ بين المرشد والمسترشد .

ولهذا قالوا - فيما يُحكى - : إن الحسن البصري وقف على شط نهر ينتظر سفينة ، فجاء حبيب العجمي فقال له : ما تنتظر ؟ فقال : سفينة ، فقال : أى حاجة إلى السفينة ؟ أما لك يقين ؟ فقال الحسن : أما لك علم ؟ ثم عبر حبيب على الماء بلا سفينة ، ووقف الحسن - إن الفضل للحسن ، فإنه كان جامعاً بين علم اليقين وعين اليقين ، وعرف الأشياء كما هي وفي نفس الأمر ، وجعلت القدرة مستورة خلف الحكمة ، والحكمة في الأسباب ، وحبيب صاحب سكر ، لم ير الأسباب ، فعومل برفعها .

(١) الشورى : ١٣

ومن هنا يظهر سر قلّة الخوارق في الصحابة ، مع قول الإمام الرباني : إن نهاية أويس سيد التابعين بداية وحشى قاتل حمزة يوم أسلم ، فما الظن بغير أويس مع غير وحشى ؟

قال الألوسي : وأنا أقول : إن الكامل وإن كان من علمت إلا أن فوقه الأكمل وهو من لم يزل صاعداً في نزوله ، ونازلاً في صعوده ، وليس ذلك إلا رسول الله ﷺ ، ولولا ذلك ما أمد العالم العلوي والسفلي ، وهذا مرجع الحقيقة والشرعية له عليه الصلاة والسلام على الوجه الاتم ، كما أشرنا إليه سابقاً ، والحمد لله تعالى على أن جعلنا من أمته وذريته .

ولا يعكر على ما ذكرنا ما قاله الإمام الغزالي في « الإحياء » وهو : أن علم الآخرة قسمان : علم مكاشفة ، وعلم معاملة . أما علم المكاشفة فهو علم الباطن ، وهو غاية العلوم ، وهو علم الصديقين والمقربين ، وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتركيبته من الصفات المذمومة ، وينكشف بذلك ما كان يسمع من قبل أسمائها ، ويتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، حتى تحصل المعرفة بذات الله تعالى وبصفاته التامات ، وبأفعاله وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة . اهـ ، لأن المراد أن ذلك من علم الباطن الذي هو علم الحقيقة ، وهذا البعض لا يمكن أن يخلو منه نبي . كيف ورتبة الصديقين دون رتبة الأنبياء عليهم السلام ، كما قرروه في آية : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

ومما ذكرنا - من عدم المخالفة بين الشريعة والحقيقة - يُعلم ما في كلام البلقيني في دفع ما استشكله من قول الخضر لموسى عليهما السلام : « إني على علم » (٢) الحديث السابق ، حيث زعم أنه يدل بظاهره على امتناع

(١) النساء : ٦٩ (٢) تمتة : من علم الله علّمنه الله لاتعلمه ، وإنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه » وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس .

تعليم العلمين معاً ، مع أنه لا يمتنع . وأجاب بأن علم الكشف والحقائق ينافي علم الظاهر ، فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظاهر أن يعلم الحقائق للتنافي ، وكذا لا ينبغي للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر ، والذي ليس مكلفاً به ، وينافي ما عنده من الحقيقة » . أهـ .

ولعمري لقد أخطأ فيما قال ، وبالحق تعرف الرجال ، وكأنه لم يعتمد عليه ، فأردفه بجواب آخر ، هو خلاف الظاهر .

وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى شيء من ذلك والاستشكال من ضعف النظر . ثم إن قصة الخضر عليه السلام لا تصلح حجة لمن يزعم المخالفة بين العلمين ، فإن أعظم ما يشكل فيها قتل الغلام ، لكونه طُبع كافراً ، وخشى من بقاءه حياً ارتداد أبويه ، وذلك أيضاً شريعة ، لكنها مخصصة به عليه السلام ؛ لأنه كما قال العلامة السبكي : أوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة ، فلا إشكال فيه ، وإن عُلِمَ من شريعتنا : أنه لا يجوز لأحد - كائناً مَنْ كان - قتل صغير ، لا سيما بين أبوين مؤمنين ، وكيف يجوز قتله بسبب لم يحصل ، والمولود لا يوصف بكفر حقيقي ولا إيمان حقيقي ؟ واتفاق الشرائع في الأحكام ، مما لم يذهب إليه أحد من الأنام ، فضلاً عن العلماء الأعلام .

وهذا ظاهر على القول بنبوته ، وأما على القول بولايته فيقال : إن عمل الولي بالإلهام كان إذ ذاك شرعاً ، أو كما قيل : إنه أمر بذلك على يد نبي غير موسى عليه السلام .

وأما إقامة الجدار بلا أجر فلا إشكال فيها ؛ لأنها إحسان ، وغاية ما يتخيل أنه للمسيء فليكن كذلك ، ولا ضرر ، فإنه من مكارم الأخلاق .

وأما خرق السفينة لتسلم من غضب الظالم فقد قالوا : إنه مما لا بأس به ، حتى قال العز بن عبد السلام : إنه إذا كان تحت يد الإنسان مال يتيم أو سفيه أو مجنون ، وخاف عليه أن يأخذه ظالم ، يجب عليه تعيينه لأجل حفظه ،

وكان القول قول مَنْ عَيَّبَ مال اليتيم ونحوه إذا نازعه اليتيم ونحوه بعد
الرشد ونحوه في أنه فعله لحفظه على الأوجه ، كما قاله القاضي زكريا في «
شرح الروض » قبيل باب الوديعة .

ونظير ذلك ما لو كان تحت يده مال يتيم مثلاً ، وعلم أنه لو لم يبذل منه
شيئاً لقاضى سوء لانتزعه منه ، وسلمه لبعض الخونة ، وأدّى ذلك إلى ذهابه ،
فإنه يجب عليه أن يدفع إليه شيئاً ، ويتحرى في أقل ما يمكن إرضاءه به ،
ويكون القول قوله أيضاً .

وقال بعضهم : قصارى ما تدل عليه القصة ثبوت العلم الباطن ، وهو
مسلم ، لكن إطلاق الباطن عليه إضافي كما تقدّم ، وكان في قوله صلى الله
عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله تعالى »
فإذا قالوه لا ينكره إلا أهل الغرة بالله تعالى « (١) إشارة إلى ذلك ، والمراد
بأهل الغرة : علماء الظاهر الذين لم يؤثروا ذلك .

وبعض مثبتيه يستدلون بقول أبي هريرة : « حفظتُ من رسول الله ﷺ
وعاءين من العلم ، فأما أحدهما فبثته ، وأما الآخر فلو بثته لقطع مني هذا
البلعوم » (٢) ، واستدل به أيضاً على المخالفة بين العلمين . . .

وأنت تعلم أنه يحتمل أن يكون أراد بالآخر الذى لو بثه لقتل : علم
الفتن ، وما وقع من بنى أمية ، وذم النبي ﷺ لأناس معينين منهم ، ولا شك
أن بث ذلك في تلك الأعصار يجر إلى القتل .

وعلى تسليم أنه أراد به العلم الباطن المسمى بعلم الحقيقة ، لا نسلم أن قطع
البلعوم منه على بثه لمخالفته للعلم الظاهر في نفس الأمر ، بل لتوهم من بيده
الحل والعقد والأمر والنهي - من أمراء ذلك الزمان - المخالفة ، فافهم « (٣) .

* * *

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء : رواه أبو عبد الرحمن السلمى في الأربعين له
في التصوف عن أبي هريرة بإسناد ضعيف

(٢) رواه البخارى في كتاب العلم موقوفاً على أبي هريرة .

(٣) انظر تفسير روح المعاني للألوسى : ج ١٦/ ١٧ - ٢٢

٥ - اعتبار الصوفية الكشف هو غاية الغايات واتخاذهم إليه طرقاً غير شرعية

ومن الانحرافات التي وقع فيها الصوفية في موضوع الكشف والإلهام والفيض : اعتبارهم ذلك هو الغاية التي إليها يشمرون ، وعليها يحرصون ، فكأنما عبادتهم وذكرهم لحظ أنفسهم فيما يرد عليهم من فيض ، وما يتجلى لهم من كشف ، لا لحق ربهم عليهم ، وواجب عبوديتهم له ، كما أنهم يسلكون إلى هذه الغاية طريقاً لم يشرعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا أمر به ، ولا سلكه أصحابه ، وتابعوهم بإحسان .

وأبلغ من عبّر عن ذلك هو الإمام الغزالي في « الإحياء » ، وقد أطل في ذلك وأفاض ، ولا بد لنا أن ننقل أهم كلامه هنا لنناقشه فيه -رضى الله عنه .

● موقف الإمام الغزالي من الكشف والإلهام :

أحسن الإمام أبو حامد الغزالي حين جعل « كتاب العلم » أول كتاب في موسوعته الشهيرة « إحياء علوم الدين » التي تحوى في الحقيقة أربعين كتاباً موزعة على أرباع أربعة : في العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات . كما أنه جعل « العلم » في آخر كتاب صنفه - وهو « منهاج العابدين » - أول « عقبة » يجب أن يجتازها العابد أو السالك في طريقه إلى مرضاة ربه .

وقد أفاض في كتاب العلم من « الإحياء » عن فضيلة العلم والتعلم والتعليم وما يتعلق به ، وتكلم عن العلم المحمود والعلم المذموم ، والعلم المفروض طلبه فرضاً عينياً أو كفائياً ، والفرق بين علم الدنيا ، وعلم طريق الآخرة ، وبين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وعرض لما تبدل من أسامي العلوم كالفقه والتوحيد وغيرهما .

وله فى ذلك بحوث وتحقيقات لم يسبق إليها ، جديرة بالغزالى الفقيه
الأصولى المحقق ، وإن لم يخل بعضها من تعقب ، مثل حديثه عن الطب
والعلوم والتعمق فيها ، إذ يراه توسعاً غير لازم ولا مطلوب ، فرأيه يحمل
طابع عصره ، وكذلك رأيه فى دراسة الأدب والشعر ، وإنكاره على من
تخصص أو تبحر فى ذلك ، وقد ناقشته فى الأمرين فى كتابى « الرسول
والعلم » (١) .

يبد أن أهم ما تعرض له فى كتابه حول العلم والمعرفة ، وأشدّه خطراً على
العقل الإسلامى ، والسلوك الإسلامى ، هو : ما ذكره بعد ذلك - فى كتاب
« شرح عجائب القلب » من الربع الثالث - عن الكشف أو الإلهام ، أو المعرفة
التي يسعى إليها أهل التصوف ، وطريق الوصول إليها .

فقد أفرد لذلك عدة فصول أو مباحث نذكر هنا أهمها ، لنناقشه فيه ، فقد
علّمنا هو فى كتبه ألا نعرف الحق بالرجال ، بل نعرف الحق بأدلتة فنعرف
أهله .

كتب رحمه الله فى أحد مباحثه مبحثاً عنوانه : « بيان الفرق بين الإلهام
والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظر » قال
فيه :

« اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل فى القلب فى بعض
الأحوال - تختلف الحال فى حصولها ، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى
فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذى
يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً ، والذى يحصل
بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً .

(١) انظر : الرسول والعلم : طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ، ودار الصحوة
بالقاهرة .

ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدرك العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم . وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب . والأول : يسمى إلهاماً ونفثاً فى الروح ، والثانى : يسمى وحياً ، وتختص به الأنبياء . والأول يختص به الأولياء والأصفياء (١) ، والذى قبله - وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء .

وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها ، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة - التى سبق ذكرها - فهى كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذى هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة ، وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة القلب بضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنّفه المصنّفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاّات فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ،

(١) ولكن من المقرر المعلوم : أن الإلهام والنفث فى الروح من طرق الوحي ، وفى الحديث : « إن روح القدس نفث فى روعى . . » فهذا مشترك بين الأنبياء والأولياء .

لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكُنْه الهمة على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له . ورعموا ^(١) أن الطريق فى ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ؛ ولا بالتأمل فى تفسير ؛ ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شىء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام ، مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً فى قلبه حاضراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه ، وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد ، واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحتها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق فى قلبه ، ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ، ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً ، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه

(١) هكذا عبر الإمام الغزالي عن اعتقاد القوم !

لا تُحصر كما لا يُحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما النظر وذوو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستبطؤوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل في حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب ، وقال رسول الله ﷺ : « قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غليانها » (١) ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » (٢) ، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ، ويختلط العقل ، ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمئن النفس إليها مدة طويلة ، إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها ، فكم من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقى في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريقة التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض ، وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك ، وصار فقيهاً بالوحي والإلهام ، من غير تكرير وتعليق ، وأنا أيضاً ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه ، ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً ؛ فكذا هذا . وقالوا : لا بد أولاً من تحصيل ما حصّله العلماء ، وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس

(١) قال الخافظ العراقي في تخريجه : أخرجه أحمد والحاكم ، وصححه من حديث

المقداد بن الأسود . (٢) قال العراقي : أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر .

بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة (١) .

* *

● شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف :

ثم ذكر الغزالي بعد ذلك مبحثاً طويلاً جعل عنوانه : « بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد » قال فيه :

« اعلم أن مَنْ انكشف له شيء - ولو الشيء اليسير - بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري ، فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومَنْ لم يدرك ذلك من نفسه قط ، فينبغي أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقولہ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) ، فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو طريق الكشف والإلهام .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » (٣) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ (٤) من الإشكالات

(١) إحياء علوم الدين : ١/ ١٨-٢٠ ، ونلاحظ أن الغزالي ذكر اعتراض النظار وذوى الاعتبار ولم يرد عليه ! (٢) العنكبوت : ٦٩

(٣) قال الحافظ العراقي في تخریج أحاديث « الإحياء » : أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه . (٤) الطلاق : ٢

والشبهه ، ﴿ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (١) يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ (٢) ، قيل : نوراً يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ اعْطِنِي نوراً ، وزدني نوراً ، واجعل لي في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً » . . . حتى قال : « وفي شعري ، وفي بشري ، وفي لحمي ودمي وعظامي » (٣) .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ (٤) ما هذا الشرح ؟ فقال : « هو التوسعة ، إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح » (٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « اللَّهُمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل » (٦) .

وقال علي رضي الله عنه : « ما عندنا شيء أسره رسول الله ﷺ إلينا ، إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه » (٧) . . . وليس هذا بالتعلم .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٨) : أنه الفهم في كتاب الله .

(٢) الأنفال : ٢٩

(١) الطلاق : ٣

(٣) قال العراقي : متفق عليه من حديث ابن عباس . (٤) الزمر : ٢٢

(٥) قال العراقي : أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود .

(٦) متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله : « وعلمه التأويل » ، فأخرجه بهذه

الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه . (٧) رواه البخاري عن علي .

(٨) البقرة : ٢٦٩

وقال تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ (١) خصَّ ما انكشف باسم الفهم .
 وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن ينظر بنور الله من وراء ستار رقيق ، والله
 إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ، ويجريه على ألسنتهم .
 وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .
 وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله
 تعالى » (٢) ، وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .
 وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العلم علمان : فعلم باطن
 في القلب ، فذلك هو العلم النافع » (٥) .
 وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو ؟ فقال : هو سر من
 أسرار الله تعالى في قلوب أحبائه ، لم يُطلع عليه ملكاً ولا بشراً .
 وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتي محدثين ومُعَلِّمين
 ومُكَلِّمين ، وإن عمر منهم » (٦) .
 والقرآن مصرّح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير
 تعلم . وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يَعْقِلُونَ ﴾ (٧) خصصها بهم .

(١) الأنبياء : ٧٩ (٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد ، وقد تقدم .

(٣) الحجر : ٧٥ (٤) البقرة : ١١٨

(٥) أخرجه ابن عبد البر وغيره مرسلأ بإسناد صحيح .

(٦) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم
 محدثون ، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر » ، ورواه مسلم من حديث عائشة .

(٧) يونس : ٦

وقال تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب ، فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الربانى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٢) ، مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لدنياً ، بل اللدنى الذى يفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج .

فهذه شواهد النقل ، ولو جُمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر ، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتاً ، فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت .

وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا سارية الجبل الجبل ؛ إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحذّره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه ، وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى ، فنظرتُ إليها شزراً وتأملت محاسنها ، فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت : يدخل على أحدكم وأثر الزنى ظاهر على عينيه ، أما علمت أن زنى العينين النظر ؟ لتوبن أو لأعزرنك ، فقلت : أوحى بعد النبى ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراصة صادقة .

(٢) الكهف : ٦٥

(١) آل عمران : ١٣٨

وعن أبي سعيد الخراز قال : دخلتُ المسجد الحرام فرأيتُ فقيراً عليه خرقتان ، فقلت في نفسي : هذا وأشباهه كلُّ على الناس ، فناداني وقال : « والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » (١) ، فاستغفرتُ الله في سرِّي فناداني وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ (٢) ، ثم غاب عني ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي ، وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قمت قلت في نفسي : من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بي : يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية ، فإن الله تعالى لطافاً خفية .

وقال أحمد النقيب : دخلت على الشبلي فقال مفتونا : يا أحمد ، فقلت : ما الخبر ؟ قال : كنت جالساً فجرى بخاطري أنك بخيل ، فقلت : ما أنا بخيل ، فعاد مني خاطري وقال : بل أنت بخيل ، فقلت : ما قُتِحَ اليوم على شيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني ، فقال : فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً ، فقال : اجعلها في مصالحك ، قال : وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير ، فقال : أعطها المزين ، فقلت : إن جملتها كذا وكذا ، قال : أو ليس قد قلنا لك : إنك بخيل ؟ قال : فناولتها المزين ، فقال المزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً ، قال : فرميت بها في دجلة وقلت : ما أعزك أحد إلا أذله الله عزَّ وجلَّ (٣) .

وقال حمزة بن عبد الله العلوي : دخلت على أبي الخير النيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ، ولا آكل في داره طعاماً ، فلما خرجت من عنده

(١) نص الآية : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ (البقرة : ٢٣٥) .

(٢) الشورى : ٢٥ وتتمتها : ﴿ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

(٣) وهل هذا التصرف جائز شرعاً ؟ وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال ؟ وهل نخلت الدنيا من المستحقين غير هذا الفقير ومزينة ؟

إذا به قد لحقني ، وقد حمل طبقاً فيه طعام وقال : يا فتى كُلْ ، فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، وكان أبو الخير النيناني هذا مشهوراً بالكرامات .

وقال إبراهيم الرقي : قصدته مُسَلِّماً عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكذب يقرأ الفاتحة مستوياً ، فقلت في نفسي : ضاعت سفرتي ! فلما سلم خرجتُ إلى الطهارة ، فقصدني سبع ، فعدتُ إلى أبي الخير ، وقلت : قصدني سبع ! فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني ؟ فتنحى الأسد ، فتطهرت ، فلما رجعت قال لي : اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد !

وما حكى من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر (١) ، بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال عنه (٢) ، ومن سماع صوت الهاتف ، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر ، والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل .

والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جمعه أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جار ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لا اشتغاله بنفسه .

(١) ولكن هذا النوع يشترك فيه المسلمون وغير المسلمين ، فليس بلارم أن يكون من دلائل التقوى .

(٢) القول الصحيح الذي قامت عليه الأدلة الشرعية أن الخضر ليس حياً ، وأنه مات قبل بعثة رسول الله ﷺ ، كما دلت على ذلك ابن الجوزي وابن القيم وغيرهما (راجع كتابنا « فتاوى معاصرة » - الجزء الأول ص ١٩٣ - ١٩٥) نشر دار القلم بالكويت

ثانيهما : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن ، وإذا جار ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشُغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا يسمى ولياً .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب ، وهو باب الإلهام والنفث في الروح والوحي ، فإذا أقرّ بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن يكون المجاهدة سبيلاً إليه .

فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرنا ، من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت .

وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثل المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، فإنه كاف للاستحاث على المجاهدة وطلب الكشف منها .



● وقفة مع الإمام الغزالي :

وإني - مع حبي للإمام أبي حامد الغزالي - رضى الله عنه - وإعجابي بعقريته وإخلاصه - أقف عند كلامه هذا لمناقشته كما ناقش شيوخه وخالفهم . وبذلك نضع النقط على الحروف ، والحق أحق أن يُتبع .

❖ إمكان الكشف ووقوعه متفق عليه :

أولاً : لا نزاع في إمكان حصول الكشف ووقوعه بالفعل لبعض الناس ، وما ذكره الإمام الغزالي في « الإحياء » من شواهد الشرع ومن الحكايات والتجارب ، مسلّم به في جملة ، وإن كانت النتائج التي رتبها عليها غير مُسلّمة .

فقد استدل بجملة نصوص من القرآن والحديث والآثار مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٧) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ أعطني نوراً ، وزدني نوراً » (٨) الحديث ، وحديث : « لقد كان فيمن قبلكم مُحدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر » (٩) .

وقوله : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (١٠) ، ودعائه لابن عباس « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » (١١) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

❖

(١) العنكبوت : ٦٩	(٢) الأنفال : ٢٩	(٣) الزمر : ٢٢
(٤) البقرة : ٢٦٩	(٥) الأنبياء : ٧٩	(٦) الحجر : ٧٥
(٧) البقرة : ١١٨	(٨) متفق عليه من حديث ابن عباس .	
(٩) متفق على متنه كما تقدم .	(١٠) رواه الترمذي وحسنه بعض العلماء ، وقد تقدم .	
(١١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه .		

❖ أدلة الغزالي لا تُثبت دعواه :

ثانياً : هذه الشواهد والنصوص والتجارب والحكايات التي ذكرها الغزالي رحمه الله مُسلّمة في جملتها كما قلنا ، ولكنها لا تُثبت دعواه فيما وضعه عنواناً لهذا الفصل من كتابه ، وهو « بيان شواهد الشرح على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد » ، فإن هذه الشواهد والأدلة التي ذكرها دلّت على أن الإنسان المؤمن التقى المجاهد لنفسه ، المراقب لربه ، الواقف عند أمره ونهيه ، يرزقه الله تعالى الهداية أو النور أو الفرقان أو الحكمة أو الفهم أو الفقه أو العلم النافع الخ . . . ولكنها لم تدل بحال على أن يكون كل همه انتظارها - وقد تجيء أو لا تجيء . . . ويدع الطريق المعتاد الذي سلكه ورثة الأنبياء ، والذي شرعه الله تعالى لتحصيل المعرفة المأمونة لحقائق الغيب ، وأحكام الشرع .

وما ذكره الغزالي أن هذا طريق الأنبياء غير مُسلّم له ، فبينما صلى الله عليه وسلم حين كان يتعبد لله في غار حراء ، لم يكن يطلب كشفاً ولا إلهاماً ، وما كان يرجو شيئاً ينزل عليه من السماء ، ولم يخطر له ذلك بياله ، وهذا ما قرره القرآن : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (١) ، بل حين جاءه الوحي كان مفاجأة هائلة له ، ورجع يرجف فؤاده ، ويقول لزوجته : « زمّلوني ، زمّلوني » ! ويقول : « لقد خشيتُ على نفسي » !

إننا نخالف الإمام أبا حامد الغزالي هنا في اعتباره الكشف أمراً يُطلب ، والحقيقة أنه أمر يُوهَب ، ونحن المسلمين لم نُؤمر بطلب الكشف ، وإنما أُمرنا بطلب العلم ، وقد جاءت الأحاديث ناطقة بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ومن سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة ،

(١) القصص : ٨٦

وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، ولم يجيء شيء من ذلك لطالب الكشف .

وإذا كانت النصوص قد جعلت النور والهداية والفرقان ثمرات للعبادة والتقوى والإخلاص لله تعالى ، بوصف ذلك مثوبة عاجلة من الله تعالى في الدنيا لعباده المتقين ، فهذا فيمن عبد الله واثقاه مخلصاً له الدين ، مبتغياً وجهه ومرضاته قياماً بحق عبوديته ، أما مَنْ جعل الغاية من عبادته أن تكشف له المساتير ويقوده الإلهام في كل شيء ، فهو في الحقيقة لم يخلص العبادة لربه ، إنما هو يطلب حظ نفسه !

ولقد صدق ما ذكره أحد المحققين عن بعض المتعبدین الذي حبس نفسه للصيام والقيام والتعبد أربعين يوماً ، رجاء أن تتفجر الحكمة من قلبه على لسانه ، كما جاء ذلك في بعض الأحاديث فيمن أخلص لله أربعين يوماً ، فلما مرت الأربعون يوماً لم يَرَ أثراً للحكمة التي ركض وراءها ، وأطال العبادة من أجلها .

وعندئذ سأل أحد العلماء الربانيين عن مصداقية الحديث أو الأثر المذكور ؟ فقال له العالم : الحديث فيمن أخلص لله وحده ، وأنت لم تخلص لله ، إنما أخلصت للحكمة !

وما ذكره الغزالي رحمه الله من هذا النوع ، فهم لا يُخلصون لله ، إنما يُخلصون للكشف !

ثالثاً : إن هذا الطريق الذي وصفه الغزالي وامتدحه ورفع من قدره ، وأثنى على أهله - طريق شديد الوعورة ، عظيم الخطورة ، كثير المنعطفات والمنحدرات ، جم الحفر والمهاوى ، قلماً يجد فيه سالكه منارات تهديه وعلامات تدله ، لأن المنارات في علم الشرع وقد تركوه ، والعلامات في ميراث النبوة وقد أهملوه .

وقد ذكر الغزالي اعتراض النُّظار وذوى الاستبصار على طُلاب الكشف الصوفى بنحو ذلك ، ولم يرد عليهم بشيء ، مما يرمى إلى أن اعتراضهم له وجهه ، وكلامهم فى محله . قال :

« وأما النُّظار وذو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محور العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر فى غليانها » (١) ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » (٢) .

وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضى العمر ، قبل النجاح فيها . فكم من صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه القياس ذلك الخيال فى الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى ﷺ لم يتعلم ذلك وصار فقيهاً بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق ، وأنا أيضاً ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه . ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من

(١) قال الحافظ العراقى : أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد ابن الأسود .
(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً : فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة » (١) .

رابعاً : إن هنا سؤالاً مهماً ، وهو : ما الحكم إذا جاء الكشف بما يخالف ما جاء به الشرع ؟ ماذا يصنع صاحب الكشف ؟ أصدق كشفه وإلهامه ، أم يصدق ما جاء به قرآنه الذى لا يكذب ، ونبيه الذى لا ينطق عن الهوى ؟

إن بعض الصوفية يعتبرون ما ثبت بالكشف من باب علم اليقين ، بل عين اليقين ، بخلاف ما ثبت بالشرع فهو من باب الترجيح والظن ، كما زعمه من زعمه : أن الدلالات اللفظية تعترىها احتمالات كثيرة تُخرجها من دائرة اليقين .

حتى الغزالي يقول : إن ما يتعلق بعلم المكاشفة لا يجوز أن يودع فى الكتب ، أو يُصرَّح به ، ويومىء إلى أن فيه ما قد يعارض محكمات الشرع ويؤنات الدين ، حتى إنه فى آخر كتبه « منهاج العابدين » استشهد بأبيات نسبوها إلى الإمام علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ رضى الله عنهم يقول فيها :

يا ربَّ جوهر علم لو أبوحُ به	لقل لى : أنت ممن يعبد الوثنا !
ولا ستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسناً !

(١) إحياء علوم الدين : ١ / ٢٠

فما الذى يجعل هؤلاء يستبيحون دمه لولا أن هناك مخالفة صريحة لما هو ثابت من الدين بيقين ؟

خامساً : نريد أن نوجه إلى شيخنا أبى حامد الغزالى عدة أسئلة حول الطريقة التى ذكرها للوصول إلى الكشف :

(أ) هل هذه الطريقة التى وصفها الإمام الغزالى هى طريقة الصحابة والتابعين ؟ وهم خير هذه الأمة وسادتها وخير قرونها ؟ وَمَنْ مِنْ الصَّحَابَةِ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ فَعَلَ ذَلِكَ ؟ أما والله لو فعلوا ذلك ما فتحوا الفتوح ، ولا نشروا رسالة الإسلام فى العالمين ، ولا نقلوا لنا القرآن ، ولا روى السنن ، ولا فقهوا الناس .

(ب) ثم كيف اعتبر الإمام الغزالى أن مما يفرق الفكر ، ويبعد القلب عن الاستغراق المنشود : تلاوة كتاب الله تعالى ، وقيام الليل وغيرها من صلوات النوافل ، وقراءة تفسير كلام الله ، أو أحاديث رسول الله ﷺ ، وهذه إنما هى مفاتيح الهدى ، ومصابيح الدجى ، وما عداها لا يؤمن فيها الخلط والدخل ، وكيد الشيطان .

(ج) وإذا كان أبو حامد الغزالى - رحمه الله - يذكر أن التقوى هى مفتاح الهداية ، ومصدر النور والفرقان للقلب ، وسبب إخراجهم من الشبهة والمشكلات ، فهل التقوى إلا اتباع ما جاء به القرآن والسنة ؟ وهل هناك هدى خير من هدى محمد ﷺ ؟ وهل هناك منهج أو سنة أفضل من سُنَّته وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ؟ وقد انعقد الإجماع على أن كل خير فى اتباع مَنْ سَلَفَ ، وأن كل شر فى ابتداع مَنْ خَلَفَ .

(د) وهل هذا السلوك يتفق هو ومنهج الإسلام ، الذى يتميز بالشمول والتوازن والاعتدال ، لأنه المنهج الوَسَط للأمة الوَسَط ؟

إن الإسلام دعوة عالمية ، جمعت بين الدنيا والآخرة ، بين الروح والمادة ،

بين العلم والإيمان ، بين العقل والقلب ، بين حق الله وحظ النفوس ،
والدليل على هذا من الآيات والأحاديث وهُدَى السَّكْف أكثر من أن يُحصَر .

فأين هذا مما وصفه الإمام الغزالي هنا ؟

(هـ) وَلِمَ كُلُّ هَذَا الْعَنَاءُ ؟!

في انتظار فيض قد يحدث مثله لمن مارس رياضة النفس وعاناه من أهل
أى دين كان .

ولفقراء الهندوس الوثنيين ، ورهبان النصراني الضَّالِّين في هذا الباب
عجائب وقصص تُحكى وتُناقل .

فهل هذه النتيجة هي غاية المنتهى التى ينشدها المتصوّفون ؟

سادساً : ونزيد على هذا التساؤل أموراً إيجابية ذكرها الإمام ابن تيمية في
مناقشته لهذا الأمر ، منها :

(و) أن الإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر ، فمن أين يعلم أن ما يحصل
فيه حق ؟ هذا إما أن يعلم بعقل أو سمع ، وكلاهما لم يدل على ذلك .

(ر) أن الذى قد علم بالسمع أو العقل أنه إذا فرغ قلبه من كل شيء حلّت
فيه الشياطين ، ثم تنزلت عليه الشياطين ، كما كانت تنزل على الكهان ،
فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله الذى
أرسل به رسله ، فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ
يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ (١) .

وقال الشيطان فيما أخبر الله عنه : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ * إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

(١) الزخرف : ٣٦ - ٣٧

(٢) سورة ص : ٨٢ - ٨٣

سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١﴾ ، والمخلصون هم الذين يعبدونه وحده لا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً ، وَإِنَّمَا يُعْبَدُ اللَّهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى السُّنَّةِ رَسُلُهُ ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ تَوَلَّاهُ الشَّيَاطِينُ .

وهذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكين ، واشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية ، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكُهَّان والسَّحَرَة ، وظنوا أن ذلك من كرامات أولياء الله المتقين ، كما قد بُسِطَ الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

(ح) أن هذه الطريقة لو كانت حقاً ، فإنما تكون في حق مَنْ لَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ ، فَأَمَّا مَنْ أَتَاهُ رَسُولٌ وَأَمَرَ بِسُلُوكِ طَرِيقٍ ، فَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ . ونخاتم الرسل - صلى الله عليه وسلم - قد أَمَرَ أُمَّتَهُ بِعِبَادَاتٍ شَرْعِيَّةٍ مِنْ صَلَاةٍ وَذِكْرِ وَدَعَاءٍ وَقِرَاءَةٍ ، لَمْ يَأْمُرْهُمْ قَطُّ بِتَفْرِيقِ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ خَاطِرٍ وَانتِظَارِ مَا يَنْزِلُ !

فهذه الطريقة لو قُدِّرَ أَنَّهَا طَرِيقٌ لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ لَكَانَتْ مَنْسُوخَةً بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - فَكَيْفَ وَهِيَ طَرِيقَةٌ جَاهِلِيَّةٌ لَا تُوجِبُ الْوُصُولَ إِلَى الْمَطْلُوبِ إِلَّا بِطَرِيقِ الْإِتِّفَاقِ ، بَأَن يَقْذِفَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي قَلْبِ الْعَبْدِ إِلَهَاماً يَنْفَعُهُ ؟ وَهَذَا قَدْ يَحْصُلُ لِكُلِّ أَحَدٍ ، لَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الطَّرِيقِ .

ولكن التفريق والتخلية التي جاء بها الرسول أن يفرغ قلبه مما لا يحبه الله ، ويملاه بما يحبه الله ، فيفرغه من عبادة غير الله ، ويملؤه بعبادة الله ، وكذلك يفرغه من محبة غير الله ، ويملؤه بمحبة الله ، وكذلك يخرج عنه خوف غير الله ، ويدخل فيه خوف الله تعالى ، وينفى عنه التوكل على غير الله ، ويثبت فيه التوكل على الله . وهذا هو الإسلام المتضمن للإيمان الذي يمده القرآن ويقويه ، ولا يناقضه وينافيه ، كما قال جندب وابن عمر : « تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن ، فارددنا إيماناً » .

(١) الحجر : ٤٢

وأما الاختصار على الذِّكْر المجرّد الشرعى مثل قول : « لا إله إلا الله » - فهذا قد يتتفع به الإنسان أحياناً ، ولكن ليس هذا الذِّكْر وحده هو الطريق إلى الله - تعالى - دون ما عداه ، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذِّكْر ثم الدعاء (١) .

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا رَشْدَنَا ، وَارْزُقْنَا نُوراً نَمْشِي بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ ، وَفِرْقَاناً نَمِيزُ بِهِ بَيْنَ الْمُشْتَبِهَاتِ ، وَإِيمَاناً يَكُونُ لَنَا مَنَاراً فِي مَفَارِقِ الطَّرِيقَاتِ ، وَجَنبِناً الْإِنْخِدَاعِ بِضَلَالِ الشُّبُهَاتِ ، وَغَوَايَةِ الشَّهَوَاتِ ، وَاهْدِنَا صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٢) . آمين .



(١) من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣٩٩/١٠

(٢) الفاتحة : ٧

الرؤى

وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟

الرؤى .. وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟

● تمهيد :

فى الصحائف السابقة عاجلنا قضية « الإلهام » أو « الكشف » الذى أفرط فيه بعض الناس ، فجعلوه حُجَّة فى الأحكام الشرعية ، وأحلُّوا به الحلال ، وحرَّموا الحرام ، وأوجبوا الواجبات . وبذلك أضفوا على خواطرهم وأحاديث قلوبهم لونا من العصمة . فهى لا تكذب ولا تخطئ .

وفرط فيه آخرون ، فأنكروا أن يكون للإيمان والتقوى والرياضة والمجاهدة أى أثر فى تنوير القلب وهدايته إلى الصواب فى مفارق الطرق ، وإعطائه الفرقان فى التشابهات .

وبيننا الرأى السليم ، والمنهج القويم ، الذى انتهى إليه الربَّانيون المحققون ، الذين هُودوا إلى الصراط المستقيم ملتزمين بمحكمات القرآن والسُّنة ، غير مائلين إلى غلو الغالين ولا تقصير المقصرين .

وبقى علينا هنا تحقيق القول فى قضية « الرؤى » وما يحيط بها ، فهى مكملة لموضوع الإلهام والكشف ، فالإلهام كشف فى حالة اليقظة ، والرؤيا كشف فى حالة المنام . وكلاهما من إدراكات الروح ، التى يستوى عندها النوم واليقظة ، والليل والنهار .

وقد استدلل الإمام الغزالى وغيره على صحة الكشف فى اليقظة بصدق الرؤى التى يراها النائم فى المنام ، والتى صح الحديث بأنها جزء من أجزاء النبوة .

لهذا كان علينا أن نستكمل البحث فى موضوع « الرؤيا » ، ومدى إمكان الاعتماد عليها فى إثبات الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، وهل يُعتد بها دليلاً مستقلاً من أدلة الشرع فى الإثبات والنفى أو لا ؟ وفى أى مجال يمكننا اعتبارها والاعتداد بها ؟

هذا ما نحاول في هذه الصفحات أن نبحث فيه ، ونلقى عليه بعض الضوء . في إطار الأصول الشرعية ، والأدلة الثابتة من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ .

وقد عرض القرآن الكريم لقضية الرؤيا في قصة الخليل إبراهيم مع ابنه الذبيح إسماعيل عليهما السلام . وفي قصة يوسف في أكثر من موضع .

* *

● رؤيا الأنبياء وحى :

واتفق العلماء على أن رؤيا الأنبياء إحدى طرق الوحي ، وهي داخلة في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ يشمل « الإلهام » ، وما يطلق عليه « النفث في الروح » في اليقظة ، كما يشمل « الرؤيا » في النوم ، وعلى هذا اعتبرت رؤيا إبراهيم في ذبح ولده وحياً وأمرأ من الله تبارك وتعالى .

* *

● أنواع الرؤيا كما فصلتها السنة :

أما السنة النبوية فقد فصلت في أمر الرؤيا ، وورد فيها عدد وافر من الأحاديث ، حتى إن الإمام البخاري عقد في جامعه الصحيح كتاباً خاصاً سماه كتاب « التعبير » أورد فيه تسعة وتسعين حديثاً ، وافقه مسلم على تخريجها كلها ، إلا بضعة أحاديث ، كما أورد فيه عشرة آثار عن الصحابة والتابعين ، كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح في آخر كتاب التعبير (٢) .

(١) الشورى : ٥١

(٢) فتح الباري : ٤٤٦/١٢ ، طبعة دار الفكر المصورة عن السلفية .

ومن هذه الأحاديث :

حديث أبي قتادة : « الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه ، فليصق عن يساره ، وليستعذ بالله ، فإني يضره » .
وحديث أنس بن مالك : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وحديث أبي سعيد الخدري : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره » .
وحديث أبي هريرة : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » ، قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » .

وحديث أنس : « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بِي » .
وحديث أبي سعيد : « مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَكُونُنِي » .
.. والجزء الأول من رواية أبي قتادة أيضاً .

* *

● حقيقة الرؤيا وصلتها بعالم الغيب :

والناس في قضية الرؤيا جدُّ متفاوتين :

فمن الناس مَنْ غلظ حجابهم - كالماديين في عصرنا وفي كل عصر ، وكأتباع مدرسة التحليل النفسي - فهم ينكرون الرؤيا الصادقة ، ولا يرون الرؤى كلها إلا انعكاساً لما في النفس حالة اليقظة ، أو لما يختبئ في سراديب العقل الباطن « اللاشعور » .

وفي مقابل هؤلاء مَنْ يعتمدون في حياتهم على الرؤى كأنها وحى ، ويتظنون في كل أمر أن يروا فيه رؤيا تشير لهم إلى الطريق . بل منهم مَنْ يجعلها حُجَّةً يستدلُّ بها كما يستدلُّ بالسُّنة والكتاب ، أو الإجماع والقياس .

وفى بعض الجمعيات الإسلامية انشق فريق من أعضائها على قيادتهم ،
وناصبوها العداء بناء على رؤى رآها بعضهم ، وكأنما اعتبروها وحياً .

وذكر الأستاذ فهمى هويدى فى إحدى مقالاته الأسبوعية فى « الأهرام »
القاهرية وغيرها : أن أحد حكام المسلمين ، بعد أن قرر إجراء الانتخابات فى
بلده فى موعد مُعَيَّن ، عاد فألغاه نتيجة لرؤيا رآها ، حذَّرتَه من عواقبها !
وهكذا أصبحت الرؤى تتدخل فى الدين ، وتتدخل فى السياسة ،
وتتدخل فى شتى شئون الحياة .

ونحن لا ننفى صدق بعض الرؤى ، فهذا أمر أثبتته النص ، وأثبتته الواقع ،
وأيدته العلم .

أما النصوص ، فحسبنا ما ذكره القرآن فى سورة يوسف ، من رؤياه أحد
عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له . ومن رؤيا الملك سبع بقرات سمان
... ومن رؤيا السجين معه ... إلخ . وكلها كانت رؤى صادقة ، ووقعت
كما رؤيت .

وكذلك رؤيا الرسول ﷺ أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمين .

وفى الحديث الصحيح عند البخارى : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة
وأربعين جزءاً من النبوة » (١) .

وقد قيل فى سبب هذا التخصيص بالعدد المذكور :

١ - أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي هو الرؤيا الصادقة ،
فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وذلك نصف سنة ، ثم انتقل إلى
وحي اليقظة ، مدة ثلاث وعشرين سنة ، من حين بعث إلى أن توفى
صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه عن أربعة من الصحابة : عبادة بن الصامت ، وأنس ، وأبى هريرة ،
وأبى سعيد .

فنسبة مدة الوحي بالرؤيا إلى سائر المدة نسبة واحد إلى ستة وأربعين .
قال ابن القيم : « وهذا حسن ، لولا ما جاء في الرواية الصحيحة الأخرى
.. إنها جزء من سبعين جزءاً » .

٢ - وقد قيل في الجمع بينهما : إن ذلك بحسب حال الرائي ، فإن رؤيا
الصديقين من ستة وأربعين ، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين . والله
أعلم (١) .

٣ - وفي تفسير الألوسي : لعل المقصود من كل ذلك - على ما قيل -
مدح الرؤيا الصادقة والتنويه برفعة شأنها ، لا خصوصية العدد ، ولا حقيقة
الجزئية (٢) .

وفي حديث آخر : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . قيل : وما المبشرات
يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن ، أو تُرى له » (٣) .

فالمراد بهذه الأحاديث وما شابهها تشبيه أمر الرؤيا الصادقة بالنبوة ، لأن
فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما ، لا أن الرؤيا نبوة ، لأن جزء الشيء -
إن أثبتنا حقيقة الجزئية هنا - لا يستلزم ثبوت وصفه للشيء كله . كمن قال :
« لا إله إلا الله » رافعاً بها صوته ، لا يسمى مؤذناً ، ولا يقال : إنه أذن ،
وإن كان ما قال جزءاً من الأذان .

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ٥٠ / ١ ، طبعة السنة المحمدية . وقال ابن بطال
في بيان كون الرؤيا جزءاً من النبوة : المعنى أن الرؤيا خبر صادق عن الله لا كذب
فيه ، كما أن معنى النبوة : نبأ صادق من الله لا يجوز عليه الكذب ، فشابهت الرؤيا
النبوة في صدق الخبر ، وأما خصوص العدد ، فقال المازري : هو ما أطلع الله عليه
نبيه ، لأنه يعلم من حقائق النبوة ما لا يعلمه غيره . (انظر فتح الباري : ١٥ / ١٦ -
٢٢ ، طبعة الحلبي ، وقد أطلال فيها النقل والبحث) .

(٢) تفسير روح المعاني : ١٨٢ / ١٢ (٣) رواه البخاري عن أبي هريرة .

ويؤيد هذا حديث أم كُرر الكعبية قالت : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ذهب النبوة وبقيت المبشرات » (١) .

وعلى كل حال ، فقد دلت هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها - كما دلّ القرآن الكريم في قصة يوسف وغيرها - على أن من الرؤى ما يتكشف فيه للرأى بعض الغيب المستور ، ولهذا عُدَّت جزءاً من النبوة ، كما أن منها ما يتضمن نوع بشارة للمؤمن بما يَسِرُّه ، ومثله النذارة والتحذير من معصية أو غفلة ، أو التنبيه على طريق خير ورُشد .

وهذا هو مجال الرؤيا الصادقة الذي يثبتهُ المؤمنون بالإسلام ، لا أكثر من ذلك .

فليست حُجَّة شرعية ولا دليلاً يُتوصل بها إلى معرفة أحكام الدين .

أما غير الإسلاميين قديماً وحديثاً ، فلهم في ظاهرة الرؤى تخرصات وتخبطات وأقاويل ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا قام عليها برهان ، ولا أيدها واقع .

وهذا الذى جاءت به النصوص الهادية ، أيده ويؤيده الواقع المشاهد ، فلا تزال تجارب الناس في كل مكان ، وفي كل زمان ، إلى يومنا هذا ، تثبت أن هناك رؤى تتنبأ بأحداث وأشياء ، ثم لا تلبث أن تتحقق .

وما منا إلا مَنْ شاهد من نفسه ، ومن حوله شيئاً من هذا الجانب ، ومن لم يشاهد ذلك من نفسه ، سمعه من كثيرين غيره من الثقات ، ومن شتى الفئات ، ممن لا يُعقل تواطؤهم على الكذب .

أما العلم الحديث فقد اكتشف كثير من رجالاته أن في الإنسان طاقات عجيبة لم تُعرف كلها بعد ، يمكن بها قراءة الأفكار ، واستشفاف بعض

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وابن حبان .

المجهول ، والتخاطب عن بُعد ، وللغربيين فى ذلك تجارب وملاحظات ،
وكتب ومؤلفات .

ولهذا يكون من التهور والتسرّع الذى لا يليق بإنسان يحترم نفسه ، ويحترم
تجارب البشر ، ويحترم مواهب النوع الإنسانى - المبادرة بإنكار الرؤيا الصادقة
إنكاراً كلياً ، لا يقوم على أساس ولا برهان ، إلا جحد ما وراء الحس ،
والانحصار فى قمقم المادة الكثيفة ، وعدم الثقة بما وهب الله الإنسان من قدرة
على اختراق حاجز الزمان والمكان ، واستشفاف بعض ما وراء عالم
الشهادة ، مما يخبئه عالم الغيب .

ولقد حكوا عن صاحب نظرية التحليل النفسى « فرويد » أنه لم ينكر -
على كل ما فى نظريته من تجاوز وتمحل وتحكم - أن هناك أحلاماً تحمل معنى
التنبؤ .

وبعد هذا البيان فى تفسير ظاهرة الرؤى الصادقة ، يلزمنا أن ننبه هنا على
أمرين فى غاية من الأهمية :

* الرؤى مجرد مُبَشِّرَات أو منبهات :

الأول : أن الرؤى الصالحة مجرد مُبَشِّرَات أو منبهات ، لتثيت قلوب
المؤمنين أو تقوية عزائمهم ، وليست « مخدّرات » يتعاطاها بعض السليبين من
الناس ، ليتخذوا منها تكأة للاتكالية الواهنة ، وللهرب من الواقع ، أو للعودة
عن مجاهدة الفساد ، ومواجهة الظلم والظلام . فهو إذا رأى فى منامه أن
طاغية سيسقط ، أو أن نظاماً سينهار ، أو أن طائفة ستنتصر ، هلّل وكبّر ،
وضحك واستبشر ، ووقف عند هذا الحد ، لا يقوم بجهد إيجابى فى تحويل
الغيب المترقب إلى واقع ملموس ، مكتفياً بإلقاء العبء على كاهل القَدَر
الذى يقول للشئ : « كن » فيكون !

والنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لم يكونوا ينظرون إلى الرؤيا

أكثر من أنها بُشِّرَى ، ثم يمضون فى خطتهم وجهادهم ، سائرين على الدرب ،
غير وائين ولا متثاقلين ، ولا مهملين لسنن الله .

وهذا واضح من سيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن رأى أنه
وأصحابه دخلوا المسجد الحرام آمنين .

هذا مع الفرق البين الشاسع بين رؤيا ليس فى صدقها شك - كرؤيا
الرسول ﷺ - ورؤى ربما كانت من أحاديث النفس وأمانيتها فى اليقظة ،
تتشكل فى صورة رؤى بالليل ، على نحو ما قال المثل : « الجوعان يحلم بأنه
فى سوق العيش » .

✱

✱ الرؤيا ليست حُجَّةً شرعية :

الثانى : أن الرؤيا لا تُعتبر دليلاً شرعياً ، ولا يُحتج بها على جواز فعل
أو ترك ، ولا على منع أو استحباب ، وذلك لأسباب :

١ - أن الشرع قد حدد أدلة الأحكام فى الكتاب والسنة ، وما دلا عليه
من الإجماع والقياس الصحيح ، ولم يجعل من أدلة أحكامه رؤيا زيد أو عمرو
من البشر غير المعصومين . قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ
وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا
عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٣) .

٢ - أن منابع الرؤيا متعددة متنوعة ، فهى كالكشف ، منها ما هو رحمانى ،

(٣) الحشر : ٧

(٢) المائدة : ٩٢

(١) الأعراف : ٣

ومنها ما هو نفساني ، ومنها ما هو شيطاني . فمن أين يأتي اليقين بأن رؤيا فلان هذه رحمانية ، لا نفسانية ولا شيطانية ؟

قال صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تخزين من الشيطان ، ورؤيا مما يُحدث الرجل نفسه في اليقظة ، فيراه في المنام » ، وفي لفظ : « إن الرؤيا قد تكون حقاً وهي المعدودة من النبوة ، وقد تكون من الشيطان ، وقد تكون من حديث النفس » .

وعند ابن ماجه - بسند حسن كما في الفتح - مرفوعاً : « الرؤيا ثلاث : منها أهويل من الشيطان ليحزن ابن آدم ^(١) ، ومنها ما يهيم به الرجل في يقظته فيراه في منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » ، فالرؤيا الصادقة التي هي من دلائل الهداية هي التي من الله خاصة ، وكيف يمكن التمييز بين الأنواع الثلاثة ، إلا بعرضها على ميزان آخر ، وهو الشرع ؟ فرؤيا الأنبياء وحى ، وهي حق ، لأن الوحي لا يدخله خلل ، لأنه محروس من الشيطان ، هذا باتفاق الأمة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم فلا عصمة لها ، ولهذا وجب أن تُعرض على الوحي الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يُعمل بها .

٣ - أن النائم ليس من أهل التحمل ، وهو غير مأمون على ضبط ما رآه ، ولذا رُفِعَ عنه حكم التكليف .

٤ - أن الغالب في الرؤيا أن تكون على خلاف ظاهرها ، فهي عادة رموز

(١) مثاله : ما ثبت عند مسلم من حديث جابر قال : جاء أعرابي فقال : يا رسول الله ؛ رأيت في المنام كأن رأسي قُطِعَ فأنا أثبته . وفي لفظ : « فقد خرج فاشتدَّتْ في أثره » ! ، فقال : « لا تُخبر بتلاعب الشيطان بك في المنام » ، وفي رواية له : « إذا تلاعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يُخبر به الناس » .

وإشارات لا يفتن إلى حقيقتها إلا الأقلون من الناس . ولهذا اختص يوسف بأن الله علمه تأويل الأحاديث ، أى الرؤى . وكذلك قال هو عن نفسه مناجياً ربه : ﴿ رَبُّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (١) ، وَمَنْ مِنَ النَّاسِ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَوَّلَ رُؤْيَا مَلِكٍ مِصْرَ لِلْبَقَرِ وَالسِّنْبِلَاتِ بِمَا أَوَّلَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ لَقَدْ عَجَزَ الْمَعْبُرُونَ فِي عَصْرِهِ وَقَالُوا : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (٢) . وحق لهم ما قالوا .

ولقد يرى الشخص الواحد منامين متشابهين فى وقتين أو حالين مختلفين ، فيُفسَّر كل منهما بعكس ما يُفسَّر به الآخر .

ولهذه الأمور اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحُجَّة ولا تُتخذ دليلاً شرعياً . وإنما هى تبشير وتحذير وتنبيه ، ولهذا سماها الرسول : « المِبْشُرَات » .

ولكنها قد تُعتبر وتصلح للاستئناس بها فقط إذا وافقت حُجَّة شرعية صحيحة ، كما ثبت عن ابن عباس : أنه كان يقول بمتعة الحج ، لثبوتها عنده بالدليل السمعى من الكتاب والسُّنَّة ، فلما رأى بعض أصحابه رؤيا توافق ذلك ، استبشر بها ابن عباس .

فمجرد الاستبشار بمثل هذا لا يضر ، لأن العمدة فى الموضوع إنما هو الاستدلال الشرعى .

يقول العلامة ابن القيم : والرؤيا : مبدأ الوحي ، وصدقها بحسب صدق الرائي ، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وهى عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ ، كما قال النبى ﷺ ، وذلك لبُعد العهد بالنبوة وآثارها ، فيتعوَّض المؤمنون بالرؤيا . وأما فى زمن قوة نور النبوة : ففى ظهور نورها وقوته ما يغنى عن الرؤيا .

(٢) يوسف : ٤٤

(١) يوسف : ١٠١

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة ، ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم ، واحتياج مَنْ بعدهم إليها لضعف إيمانهم ، وقد نص أحمد على هذا المعنى .

وقال عبادة بن الصامت : « رؤيا المؤمن كلام يُكَلِّمُ به الرب عبده في المنام » ، وقد قال النبي ﷺ : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . قيل : وما المبشرات ، يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو تُرى له » . وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب ، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر ، قال : « أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر ، فَمَنْ كان منكم مُتَحَرِّيًا فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان » .

والرؤيا كالكشف ، منها رحمانى ، ومنها نفسانى ، ومنها شيطانى ، وقال النبي ﷺ : « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يُحدث به الرجل نفسه في اليقظة ، فيراه في المنام » .
والذى هو من أسباب الهداية : هو الرؤيا التي من الله خاصة .

ورؤيا الأنبياء وحى ، فإنها معصومة من الشيطان ، وهذا باتفاق الأمة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم : فتعرض على الوحي الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يُعمل بها ، فإن قيل : فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة ، أو تواطأت ؟

قلنا : متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي ، بل لا تكون إلا مطابقة له ، منبهة عليه ، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه ، لم يعرف الرائي اندراجها فيه ، فيتنبه بالرؤيا على ذلك ، ومَنْ أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهى ، وليشم على طهارة كاملة مستقبل القبلة ، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه ، فإن رؤياه لا تكاد تكذب البته .

وأصدق الرؤيا : رؤيا الأسحار ، فإنه وقت النزول الإلهي ، واقترب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين ، وعكسه رؤيا العتمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية . وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : « رؤيا المؤمن كلام يُكلّم به الرب عبده في المنام » .

وللرؤيا ملك موكل بها ، يُريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله ، فيضربها لكل أحد بحسبه . وقال مالك : « الرؤيا من الوحي » ، وزَجَرَ عن تفسيرها بلا علم . وقال : « أتلاعب بوحى الله » ١٩ .

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها ، يخرجنا ذكرها عن المقصود (١) . والله أعلم .

* *

● رؤيا النبي ﷺ يثبت بها حكم شرعي :

بل أريد على ذلك فأقول :

إنّ رؤيا النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام أمراً بشيء أو ناهياً عن آخر ، أو مظهراً حبه لأمر أو شخص أو طائفة ، أو مبدياً كراهته وسخطه على فرد أو جماعة أو موقف أو عمل - كل ذلك لا يؤخذ به ، ولا يثبت بمثله حكم شرعي من وجوب أو استحباب أو تحريم أو كراهة أو إباحة ، أو ولاء أو براءة أو عداوة .

وإنما يُعرض ما يكون من ذلك على الشريعة الثابتة المعصومة ، فإن وافقها فيها ونعمت ، وتكون الحُجّة هي الشريعة ، أما الرؤيا فللتأنيس فقط .

وإن لم يوافق ذلك الشريعة رُفِض ولا شك ، لأن الذي كَلَّفنا الله اعتقاده والعمل به هو ما أوحاه إلى رسوله في حياته ، لا ما تجيء به رؤياه في المنام

(١) مدارج السالكين : ١ / ٥٠ - ٥٢ - الطبعة الأولى - طبعة السُّنَّة المحمدية .

بعد وفاته . فإن الله لم يقبضه إليه إلا بعد أن أكمل الدين وأتمّ النعمة ، وترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

ذكر ابن حزم في « المحلى » أنّ بعضهم احتج على منع الصائم من القبلة في النهار بخبر عن ابن عمر قال فيه : قال عمر : رأيت رسول الله ﷺ في المنام فرأيت أنه لا ينظرني ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما شأنى ؟ فقال : « ألسنتك قبل وأنت صائم » ؟ قلت - القائل عمر - : فوالذي بعثك بالحق ، لا أقبل بعدها وأنا صائم !

وعقب أبو محمد ابن حزم على هذا الخبر بقوله : الشرائع لا تؤخذ بالمنامات ، لا سيما وقد أفتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمر في اليقظة حياً بإباحة القبلة للصائم . فمن الباطل أن ينسخ ذلك ميئاً ! نعوذ بالله من هذا (١) .

وذكر ابن حزم هنا الخبر الذى أخرجه أبو داود عن جابر قال ، قال عمر ابن الخطاب : هشتتُ قبلي وأنا صائم . فقلت : يا رسول الله ، صنعتُ اليوم أمراً عظيماً : قبلي وأنا صائم ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أرايتَ لو مضمضتَ من الماء وأنت صائم » ؟ قلت : لا بأس به . قال : « فنه » ؟ (٢) .

فبيّن له أن القبلة من الجماع المحظور ، كالمضمضة من الشرب الممنوع ، ككلاهما لا تُفطر . ولهذا يُستدلّ بهذا الحديث على إثبات القياس ؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أثبت للشئ حكماً نظيره وهو القياس .

(١) المحلى : ٥٠٧/٦ ، طبعة الإمام .

(٢) رواه أبو داود في الصوم برقم (٢٣٨٥) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٩٩٩) ، وابن حبان كما في « الموارد » برقم (٩٠٥) ، والحاكم في المستدرک وصححه ووافقه الذهبى (١ : ٤٣١) .

وأما قوله - صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي » ، فهو حديث صحيح رواه البخاري عن أنس ، ومثله عن أبي سعيد الخدري : « مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَكُونُنِي » ، وعن أبي قتادة : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَرَاءَى بِي » .

وعن أبي هريرة : « وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي » ، أو « لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي » وكلها عند البخاري ، فصحتها مما لا ريب فيه .

ومثلها عند مسلم وابن ماجه من حديث جابر : « إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِي » .

ومعنى هذا الحديث برواياته كافة : أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ نَبِيهِ وَأَكْرَمُ أُمَّتِهِ بِأَنْ مَنَعَ الشَّيْطَانَ أَنْ يَظْهَرَ فِي صُورَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الرُّؤْيَا ، لئَلَّا يَكْذِبَ عَلَى لِسَانِهِ ، وَيُضِلَّ الْأُمَّةَ .

فمع أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّشْكِلِ فِي أَيِّ صُورَةٍ أَرَادَ ، لَمْ يُمَكِّنْهُ مِنَ التَّضَوُّرِ فِي صُورَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَمَنْ رَأَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الرُّؤْيَا ، فَقَدْ رَأَاهُ حَقًّا ، أَوْ رَأَى الْحَقَّ ، كَمَا صَحَّ عَنْهُ ، فَلَيْسَتْ رُؤْيَاهُ مِنْ أَصْغَاثِ الْأَحْلَامِ ، وَلَا مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ .

ومعنى الحديث ، كما قال جماعة من العلماء : إِذَا رَأَاهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهِ ، لَا عَلَى صِفَةٍ مُضَادَّةٍ لِحَالِهِ ، فَإِنْ رَوَى عَلَى غَيْرِهَا كَانَتْ رُؤْيَا تَأْوِيلٍ لَا رُؤْيَا حَقِيقَةٍ ، فَإِنْ مِنَ الرُّؤْيَا مَا يَخْرُجُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَمِنْهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ .

وهذا ما اعتمده إمام المعبرين للرؤى محمد بن سيرين رحمه الله . فقد قال تعقيباً على الحديث المذكور : « هَذَا إِذَا رَأَاهُ فِي صُورَتِهِ » ، كما علقه عنه البخاري .

وذكر الحافظ في الفتح عن أيوب قال : كَانَ - يَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ - إِذَا

قصّ عليه رجل أنه رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : صف لي الذي رأيته - فإن وصف له صفة لا يعرفها ، قال : لم تره . قال الحافظ : سنده صحيح . ووجدتُ له ما يؤيده ، فأخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب : حدّثنى أبي ، قال : قلت لابن عباس : رأيتُ النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام ، قال : صفه لي ، قال : ذكرت الحسن بن عليّ ، فشبهته به ، قال : قد رأيته ، وسنده جيد (١) .

وهذا القول من ابن عباس من الصحابة ، ومن ابن سيرين من التابعين ، يدلّ على أنّه ليس كل من رأى شخصاً في المنام خيّل إليه أنه رسول الله ، يكون قد رأى رسول الله حقاً .

وعلى ذلك جرى علماء التعبير ، فقالوا : إذا قال الجاهل : رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يُسأل عن صفته ، فإن وافق الصفة المروية - أي في كتب الحديث والسيرة - وإلا فلا يُقبل منه (٢) .

ومن جهة أخرى ، فإن النائم ليس من أهل التحمل للرواية ، لعدم ضبطه وحفظه (٣) ، فلا يؤخذ ما قاله بعد يقظته حُجّة مطلقة .

وبهذا كله نعلم أن لا حُجّة للمنحرفين والمبتدعين في اتخاذهم المنامات والرؤى دليلاً يستندون إليه ، مبررين بها بدعهم وانحرافاتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وللإمام أبي إسحاق الشاطبي كلام في موضوع الرؤيا ردّ به على هؤلاء المبتدعة ، وهو غاية في الرصانة والتحقيق والجودة ، أنقله هنا لما فيه من قوة الحُجّة ، ووضوح المحجّة .

* *

(١) فتح الباري : ٣٨/١٦ (٢) المرجع السابق ص ٤٢

(٣) انظر إرشاد الفحول للشوكاني ص ٢٤٩ ، الطبعة الأولى - طبعة مصطفى البابي

الخلي - ١٩٣٧

● تحقيق الإمام الشاطبي في موضوع الرؤيا :

قال الشاطبي في كتابه « الاعتصام » :

« وأضعف هؤلاء (يعنى المبتدعة) احتجاجاً : قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المنامات (١) - وأقبلوا وأعرضوا بسببها ، فيقولون : رأينا فلاناً الرجل الصالح (أى فى المنام) ، فقال لنا : اتركوا كذا ، واعملوا كذا ، ويتفق مثل هذا كثيراً للمتمرسين (٢) برسم التصوف ، وربما قال بعضهم : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى النوم ، فقال لى كذا ، وأمرنى بكذا ، فيعمل بها ، ويترك بها ، مُعْرِضاً عن الحدود الموضوعة فى الشريعة . وهو خطأ ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يُحكم بها شرعاً على حال ، إلا أن تُعرض على ما فى أيدينا من الأحكام الشرعية ، فإن سَوَّغَهَا عملَ بمقتضاها ، وإلا وجب تركها والإعراض عنها ، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة . وأما استفادة الأحكام فلا ، كما يحكى عن الكنانى - رحمه الله - قال : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام . فقلت : ادع الله ألا يميت قلبى . فقال : « قل كل يوم أربعين مرة : يا حىّ يا قيوم ، لا إله إلا أنت » ، فهذا كلام حسن لا إشكال فى صحته ، وكون الذكر يُحىي القلب صحيح شرعاً . وفائدة الرؤيا : التنبيه على الخير ، وهو من ناحية البشارة ، وإنما يبقى الكلام فى التحديد بالأربعين ، وإذا لم يوجد على اللزوم (يعنى إذا لم يلتزم به ويدم عليه) استقام .

قلو رأى فى النوم قائلاً يقول : إنَّ فلاناً سرق فاقطعه ، أو عالم فاسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان رنى فحدّه ، وما أشبه ذلك ، لم يصح له

(١) فى الأصل : المقامات ، وهو غلط ناسخ أو طابع ، بدليل السياق .

(٢) تمرس بالشىء : احتك به ، وتمرس بدينه : تلعب به ، وعبت كما يعبت البعير . والمراد بهم هنا : المقلدون للصوفية فى رسومهم الظاهرة دون أخلاقهم وأعمالهم .

العمل ، حتى يقوم له الشاهد فى اليقظة ، وإلا كان عاملاً بغير شريعة ،
إذ ليس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحى .

ولا يقال : إن الرؤيا من أجزاء النبوة فلا ينبغى أن تُهمل ، وأيضاً إن المخبر
فى المنام قد يكون النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو قد قال : « مَنْ رَأَى
فى النوم فقد رَأَى حقاً ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بى » ، وإذا كان ، فإخباره
فى النوم كإخباره فى اليقظة ، لأننا نقول : إن كانت الرؤيا من أجزاء النبوة
فليست إلينا من كمال الوحى ، بل جزء من أجزائه ، والجزء لا يقوم مقام
الكل فى جميع الوجوه ، بل إنما يقوم مقامه فى بعض الوجوه ، وقد صرفت
إلى جهة البشارة والندارة ، وفيها كاف (١) .

وأيضاً فإنَّ الرؤيا التى هى جزء من أجزاء النبوة من شرطها : أن تكون
صالحة من الرجل الصالح ، وحصول الشروط مما يُنظر فيه ، فقد تتوفر ،
وقد لا تتوفر .

وأيضاً فهى منقسمة إلى الحلم ، وهو من الشيطان ، وإلى حديث النفس ،
وقد تكون سبب هيجان بعض أخلاط ، فمتى تتعين الصالحة حتى يُحكم بها ،
وتُترك غير الصالحة ؟

ويلزم أيضاً على ذلك أن يكون تجديد وحى بحكم بعد النبى - صلى الله
عليه وسلم - وهو منهى عنه بالإجماع .

يُحكى أن شريك بن عبد الله القاضى دخل على المهدي ، فلما رآه قال :
على بالسيف والنطع . قال : ولمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيتُ فى منامى
كأنك تطأ بساطى ، وأنت معرض عني ، فقصصت رؤياى على مَنْ عبَّرها .
فقال لى : يُظهر لك طاعة ، ويُضمّر معصية . فقال له شريك : والله ما رؤياك
برؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولا معبرك بيوسف الصديق عليه السلام !

(١) كذا ، ولعل فى الكلام حذفاً .

فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين ؟! فاستحيا المهدي وقال : اخرج عني ، ثم صرفه وأبعده .

وحكى الغزالي عن بعض الأئمة : أنه أفتى بوجوب قتل رجل يقول بخلق القرآن . فروجع فيه ، فاستدل بأن رجلاً رأى في منامه إبليس قد اجتاز بياب المدينة ولم يدخلها ، فقليل : هل دخلتها ؟ فقال : أغناني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن (وذكر اسمه) ، فقام ذلك الرجل فقال : لو أفتى إبليس بوجوب قتلي في اليقظة هل تقلدونه في فتواه ؟ فقالوا : لا . فقال : قوله في المنام لا يزيد عن قوله في اليقظة !

وأما الرؤيا التي يُخبر فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرائي بالحكم ، فلا بدّ من النظر أيضاً ، لأنه إذا أخبر بحكم موافق لشريعته ، فالحكم بما استقر ، وإن أخبر بمخالف فمحال ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته ، لأنّ الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائي النوميّة ، لأن ذلك باطل بالإجماع . فمن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه ، وعند ذلك نقول : إن رؤياه غير صحيحة ، إذ لو رآه حقاً لم يُخبره بما يخالف الشرع .



● تأويل حديث : « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى حَقّاً » :

قال الشاطبي : « لكن يبقى النظر في معنى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ رَأَى فِي النَّوْمِ فَقَدْ رَأَى » . وفيه تأويلان :

أحدهما : ما ذكره ابن رشد إذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في قضية ، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له : لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطلة ! فاجاب بأنه لا يحلّ له أن

يترك العمل بتلك الشهادة ، لأن ذلك إبطال لأحكام الشريعة بالرؤيا ، وذلك باطل لا يصح أن يُعتقد ، إذ لا يعلم الغيب من ناحيتها إلا الأنبياء الذين رؤياهم وحى ، ومن سواهم إنما رؤياهم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

ثم قال : وليس معنى قوله : « مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى حَقّاً » أن كل مَنْ رأى فى منامه أنه رآه فقد رآه حقيقة ، بدليل أن الرائي قد يراه مرات على صور مختلفة ، ويراه الرائي على صفة ، وغيره على صفة أخرى ، ولا يجوز أن تختلف صور النبی - صلى الله عليه وسلم - ولا صفاته ، وإنما معنى الحديث أَنَّ مَنْ رَأَى عَلَى صُورَتِي الَّتِي خُلِقْتُ عَلَيْهَا ، فَقَدْ رَأَى ، إذ لا يتمثل الشيطان بى ، إذ لم يقل : مَنْ رَأَى أَنَّهُ رَأَى وَإِنَّمَا قَالَ : « مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى » ، وأنى لهذا الرائي الذى رأى أنه رآه على صورته أنه رآه عليها ؟ وإن ظنَّ أنه رآه ، ما لم يعلم أن تلك الصورة صورته بعينها ، وهذا ما لا طريق لأحد إلى معرفته .

فهذا ما نُقِلَ عن ابن رشد وحاصله يرجع إلى أن المرئى قد يكون غير النبی - صلى الله عليه وسلم - وإن اعتقد الرائي أنه هو .

والتأويل الثانى : يقول علماء التعبير : إنَّ الشيطان قد يأتى النائم فى صورة ما من معارف الرائي وغيرهم . فيشير إلى رجل آخر : هذا فلان النبی ، وهذا الملك الفلانى ، أو من أشبه هؤلاء ممن لا يتمثل الشيطان به ، فيوقع اللبس على الرائي بذلك ، وله علامة عندهم ، وإذا كان كذلك أمكن أن يكلمه المشار إليه بالأمر والنهى غير الموافقين للشرع ، فيظن الرائي أنه من قبَل النبی - صلى الله عليه وسلم - ولا يكون كذلك . فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى .

وما أخرى هذا الضرب أن يكون الأمر أو النهى فيه مخالفاً لكمال الأول ، تحقيق بأن يكون فيه موافقاً ، وعند ذلك لا يبقى في المسألة إشكال . نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لإمكان اختلاط أحد القسمين بالآخر ، وعلى الجملة فلا يستدلّ بالرؤيا في الأحكام إلا ضعيف المنّة .

نعم يأتى المرثى تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة ، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ، ولا يبنون عليها أصلاً ، وهو الاعتدال فى أخذها ، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله أعلم « (١) .

وهذا كلام يعد غاية فى التحقيق من العلامة الشاطبى رحمه الله .



(١) الاعتصام : ١ / ٣٥١ - ٣٥٧ ، طبعة المنار .

الأصل الرابع من الأصول العشرين

فى حماية التوحيد ورعاية السنن والأسباب وبيان موقف الإسلام من التماائم والرقي والكهانة

« والتماائم والرقي ، والودع والرمل ، والمعرفة والكهانة ، وادعاء
معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا الباب : منكر تحجب محاربته ،
إلا ما كان آية من قرآن ، أو رقية مأثورة » .

حسن البنا

* * *

الأصل الرابع من الأصول العشرين

يقول الإمام حسن البنا رضى الله عنه : « والتماثل والرقي والودع والرمل والمعرفة والكهانة ، وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا الباب : منكر تجب محاربته ، إلا ما كان آية من قرآن ، أو رقية مأثورة » .

يقوم هذا الأصل على قاعدتين فى غاية الأهمية :

الأولى : هى تجريد التوحيد لله تبارك وتعالى ، بحيث يعتقد المسلم اعتقاداً جازماً : أن لا دافع ولا مانع غير الله ، ولا ضار ولا نافع غير الله ، وأن الأمور كلها بيديه سبحانه ، وأن من عداه ، وما عداه لا يملكون لأنفسهم - فضلاً عن غيرهم - ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢) .

فلا يجوز الاعتماد على أحد غير الله تعالى ، ولا على أسباب لم يشرعها الله تعالى .

والقاعدة الثانية : هى رعاية سنن الله تعالى فى الخلق والحياة والإنسان ، واحترام نظام الأسباب والمسببات الذى أقام الله عليه هذا الكون .

(١) الأنعام : ١٧ - ١٨

(٢) الزمر : ٣٨

وقد أشاع جو الشرك والوثنية قديماً وحديثاً أباطيل وخرافات اعتقادية وعملية ، أحدثت خللاً في مراعاة نظام السنن والأسباب .

من هذه الأباطيل :

١ - تعليق التماثم .

٢ - الرقى الشركية .

٣ - ادعاء معرفة الغيب عن طريق المعرفة والكهانة والودع والرمل والتنجيم ونحوها .

وهذه كلها ، وكل ما كان من هذا الباب منكر نجيب محاربه ، كما قال الأستاذ البنا رحمه الله ، ولم يستثن من ذلك إلا ما كان « آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

وستحدث عن هذه الأمور الثلاثة وأحكامها بالتفصيل في المباحث التالية ، مستمدين العون والتوفيق من الله تعالى .

(١)

التمائم وأحكامها

التمائم وأحكامها

معنى التمام :

قال الحافظ المنذرى : التميمية : خرة كانوا يُعلّقونها ، يرون أنها تدفع عنهم الآفات . وهذا جهل وضلالة ، إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى .

وقال العلامة ابن الأثير فى النهاية : التمام جمع تميمية ، وهى خمرات كانت العرب تُعلّقها على أولادهم ، يتّقون بها العين فى زعمهم فأبطلها الإسلام .

ومثلها الودع ، وهو شئ يخرج من البحر ، يشبه الصدف ، يتّقون به العين أيضاً .

ومثلها ما يُعلّق من خيوط أو من أوراق تُكتب فيها بعض العبارات من غير ذكر الله تعالى ، أو توضع فيها بعض الأشياء مما يشتمل عليه ما يسمى بـ « الأحجية » التى يصنعها الجهلة والدجالون لمن يقدسونهم .

ومن ذلك أيضاً : ما يُعلّق على أبواب المنازل أو فى مقدمة السيارات ونحوها من وضع حدوة فرس ، أو ما كان على صورتها ، أو حذاء صغير ، أو كف مرسوم أو غير ذلك ، مما يزعمون أنه وقاية من العين ، أو من أذى الجن أو الإنس ، ونحو ذلك ، فكله منكر أبطله الإسلام .

التمائم من الشرك :

وقد جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ مُحذرة من تلك الأعمال ، ومعتبرة إياها من الشرك ، والمراد به الشرك الأصغر ، وهو عظيم .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن عقبة بن عامر الجهنى : أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط ، فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا : يا رسول الله ؛

بايعة تسعة ، وتركت هذا ؟ قال : « إن عليه ثيمة » ! ، فأدخل يده فقطعها ، فبايعه ، وقال : « مَنْ عَلَّقَ ثِيْمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ » (١) .

وعن عقبة بن عامر أيضاً أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ عَلَّقَ ثِيْمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ ، وَمَنْ عَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ » (٢) .

ومعنى : « لا أتم الله له » : دعاء عليه ألا يتمم الله له ما يريد ، ومعنى : « لا ودع الله له » : أى لا جعله فى دعة وسكون . وقيل : هو لفظ معنى من الودعة ، أى لا خفف الله عنه ما يخافه .

وعن عمران بن حصين : أن النبى ﷺ رأى فى يد رجل حلقة ، فقال : « ما هذا » ؟ قال : اتخذتها من الواهنة ، قال : « ما تزيدك إلا وهناً ، أنيذها عنك ، فإنك إن متّ وهى عليك ، وكُئِلَتْ إليها » (٣) .

وفى رواية الإمام أحمد : « فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً » .

ورواه عبد الرزاق فى مصنفه عن عمران موقوفاً عليه : أنه نظر إلى رجل فى يده فتخ من صُفْرٍ ، (الفتح : الخواتيم الكبار ، والصُفْر : النحاس) فقال :

(١) رواه أحمد فى مسنده : ١٢٦/٤ ، والطبرانى : ٨٨٥/١٧ ، والحاكم : ٢١٩/٤ ، وقال المنذرى فى الترغيب (٣٠٧/٤) ، والهيثمى فى المجمع (١٠٣/٥) : ورواه أحمد ثقات . وذكره الألبانى فى أحاديثه الصحيحة (٤٩٢) .

(٢) رواه أحمد : ١٥٤/٤ ، وأبو يعلى (١٧٥٩) ، والطبرانى : ١٢٠/١٧ ، وابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٦٠٨٦) ، والحاكم : ٢١٦/٤ ، وصحح إسناده ووافقه الذهبى ، والبيهقى : ٣٥٠/٩ ، وجوّد إسناده المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وقال الهيثمى بعد أن نسبه فى المجمع إلى أحمد وأبى يعلى والطبرانى (١٠٢/٥) : ورجالهم ثقات .

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه (٦٠٨٦) من طريق المبارك بن فضالة عن الحسن ، ورواه أحمد : ٤٤٥/٤ ، وابن ماجه فى الطب (٣٥٣١) ، وقال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناده حسن ، مبارك مختلف فيه .

« ما هذا في يدك » ؟ قال : صنعته من الواهنة ! فقال عمران : « فإنه لا يزيدك إلا وهناً » (١) .

والواهنة - كما يقول ابن الأثير في النهاية - عِرْق يأخذ في المنكب أو في اليد كلها ، فيرقى منها .

وقيل : هو مرض يأخذ في العضد ، وربما علّق عليها جنس من الخرز ، يقال لها : خرز الواهنة : وهي تأخذ الرجال دون النساء ، وإنما نهاه عنها ، لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، فكان عنده في معنى التمايم المنهى عنها .

وإنما قال له : « لا تزيد إلا وهناً » لأن المشرك يُعامل بنقيض قصده ، فإنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن أبي بشير الأنصاري : أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولا : « أن لا يبقين في رقبة بغير قلادة من وتر - أو قلادة - إلا قُطعت » (٣) .

شك الراوى ، هل قال شيخه : « قلادة من وتر » ، أو قال : « قلادة » وأطلق ولم يقيد ؟

ويؤيد الأول ما روى عن مالك : أنه سئل عن القلادة ، فقال : ما سمعتُ بكراحتها إلا في الوتر .

ويؤيد الآخر : رواية أبي داود : « ولا قلادة » بغير شك .

واختلفوا في المراد بالنهاى هنا .

(١) المصنف : الأثر (٢٠٣٤٤) . (٢) يونس : ١٠٦ .

(٣) متفق عليه ، انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، حديث (١٣٧١) .

ونقل الحافظ في الفتح عن الإمام ابن الجوزي ثلاثة أقوال في المعنى المراد :

أحدها : أنهم كانوا يُقلدون الإبل أوتار القسي ، لثلاث تصيبيها العين بزعمهم ، فأُمرُوا بقطعها ، إعلاماً بأن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً . وهذا قول مالك . قال الحافظ : ويؤيده حديث عقبة بن عامر مرفوعاً : « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ » .

ثانيها : النهي عن ذلك ، لثلاث تختنق الدابة عند شدة الركض ، ورجحه أبو عبيد ، إذ قال : نهى عن ذلك ، لأن الدواب تتأذى بذلك ، ويضيق عليها نفسها ورعيها ، وربما تعلقت بشجرة فاختنقت أو تعوقت عن السير .

وثالثها : أنهم كانوا يعلقون فيها الأجراس ، يحكاه الخطابي ، وعليه يدل تبريب البخاري (١) .

وكان الصحابة رضي الله عنهم حذرين أشد الحذر من الشرك كله ، أكبره وأصغره ، جليه وخفيه ، أن يتسرب إلى أنفسهم أو إلى أحد من أهلهم أو من حولهم ، فإذا رأوا شيئاً من ذلك أنكروه ، أداءً للواجب ، وتبرئة للذمة ، وإبلاغاً للدعوة ، وكذلك تلاميذهم من التابعين .

روى الإمام أحمد في مسند عبد الله بن مسعود عن ابن أخي زينب عن زينب امرأة عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب فتحنح وبزق ، كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، قالت : وعندي عجوز ترقيني من الحُمرة ، فأدخلتها تحت السرير ، فدخل فجلس إلى جنبى ، فرأى فى عنقى خيطاً ! قال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رُقَى لى فيه ! قالت : فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتُّوكَة شرك » ، قالت : فقلت له : لِمَ تقول هذا ، وقد كانت

(١) انظر فتح الباري : ٤٢/٦ ، طبعة السلفية ، شرح حديث (٣٠٠٥) .

عينى تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقبها ، وكان إذا رقاها سكنت ؟ قال : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقيتها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ : « أذهب البأس رب الناس ، اشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » (١) .

أما الرقى فسيأتى الحديث عنها مفصلاً ، وأما التوكة - بكسر التاء وفتح الواو - فهي كما قاله ابن الأثير : ما يحجب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره ، جعله شركاً لا اعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى . (السقم - بفتح السين ، وبضم السين مع سكون القاف : المرض) .

وروى ابن أبى حاتم عن عروة : أن حذيفة بن اليمان ، دخل على مريض ، فرأى فى عضده سيراً ، فقطعه - أو انتزعه - ثم قال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وروى وكيع فى جامعه عن سعيد بن جبیر : مَنْ قطع قميمة من إنسان كان كعدل رقبة !

(١) قال الشيخ شاکر فى تخريجه برقم (٣٦١٥) : إسناده حسن ، ابن أخى زينب امرأة ابن مسعود : لم يعرف اسمه ، ولكنه تابعى ، فهو على الستر وقبول حديثه . زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود : صحابية معروفة . والحديث رواه أبو داود فى الطب (٣٨٨٣) من طريق أبى معاوية عن الأعمش ، واختصر القصة التى فى أوله . قال المنذرى : « أخرجه ابن ماجه عن ابن أخت زينب عنها ، وفى نسخة : عن أخت زينب عنها ، وفيه قصة ، والراوى عن زينب مجهول » ، وهو فى ابن ماجه (٣٥٣٠) مطولاً من طريق عبد الله بن بشر عن الأعمش ، وقال الحافظ فى التقريب عن ابن أخى زينب : كآته صحابى ، ولم أره مسمى . والحديث رواه الحاكم من طريق عبد الله ابن عتبة بن مسعود عن زينب ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى : ٤١٧/٤ ، ٤١٨ ، وله عنده طريقان آخران يتقوى بهما : ٤٧/٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ورواه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٦٠٩٠) إلا أن فيه انقطاعاً . (٢) يوسف : ١٠٦

كراهية التماثل ولو كانت من القرآن :

وعن إبراهيم النخعي قال : كانوا يكرهون التماثل كلها ، من القرآن وغير القرآن (١) .

وإبراهيم النخعي إمام من كبار فقهاء التابعين مات سنة ستة وتسعين (٩٦ هـ) . وقوله : « كانوا » يقصد أصحاب ابن مسعود من مدرسة الكوفة العلمية الشهيرة ، أمثال علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وأبي وائل ، والحارث ابن سويد ، وعبيدة السلماني ، والربيع بن خثيم ، وغيرهم . وكلهم من سادات التابعين ، وهذه الصيغة : « كانوا » يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم وأحوالهم .

وهذا هو موقف ابن مسعود وأصحابه : كراهية التماثل كلها ، من القرآن ومن غيره .

من يرى جواز التماثل إذا كانت من القرآن :

وهناك من يرى جواز التماثل إذا كانت من القرآن ، وما فيه ذكر الله تعالى . فقد ورد أن عبد الله بن عمرو لم يكن يمانع في ذلك . فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (عبد الله بن عمرو) قال : كان رسول الله ﷺ يُعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : « بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة ، من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » ، قال : فكان عبد الله يعلمهن من بلغ من ولده ، أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها ، كتبها له ، فعلقها في عنقه (٢) .

قال في « فتح المجيد » : وهو ظاهر ما روى عن عائشة ، وبه قال أبو جعفر

(١) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - بتحقيق محمد حامد الفقي - الطبعة السابعة - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة .

(٢) رواه أحمد في مسند عبد الله بن عمرو . الحديث (٦٦٩٦) ، وقال الشيخ شاکر : إسناده صحيح ، ورواه أبو داود في الطب (٣٨٩٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٥١٩) ، وقال : حسن غريب ، ونسبه المنذرى للنسائي أيضاً .

الباقر ، وأحمد فى رواية . وحملوا الحديث (الناهى عن التماائم) على التماائم التى فىها شرك (١) .

وقال الحافظ ابن حجر فى حديث : « لا تبقيان فى رقبة بغير قلادة من وتر » بعد شرحه : هذا كله فى تعليق التماائم وغيرها مما ليس فيه قرآن ونحوه . فأما ما فيه ذكر الله فلا نهى فيه ، فإنه إنما يُجعل للتبرك به ، والتعوذ بأسمائه وذكره (٢) .

موقف المسلم فى هذه القضية :

وإذا اختلف السلف فى مثل هذه القضية ، فللمسلم أن يأخذ ما يطمئن إليه قلبه من أحد الرايين ، وإن كنت أرجح ما رآه أصحاب ابن مسعود من كراهية التماائم كلها .

وهذا الترجيح مرده إلى جملة أمور :

أولها : عموم النهى عن التماائم ، حيث لم تُفرّق النصوص بين بعضها وبعض ، ولم يوجد مخصص .

وثانيها : سد الذريعة ، حتى لا يُفضى إلى تعليق ما ليس كذلك .

وثالثها : أنه إذا علّق ذلك ، فإنه لا بد أن يمتنه ، بحمله فى حال قضاء الحاجة ، والجنابة ونحوها (٣) .

ورابعها : أن القرآن إنما أنزل ليكون هداية ومنهاجاً للحياة ، لا ليُتخذ تماائم وحُجُباً ، وما إلى ذلك .

ومع هذا لا ينبغى أن يشتد المسلم فى إنكار التماائم إذا كانت من القرآن وذكر الله ، أو غيرها بيده ، فإنه من المقرر : أن لا إنكار فى المسائل الاجتهادية الخلافية ، ولا سيما أن ابن مسعود وأصحابه كانوا - كما روى

(٢) فتح البارى : ١٤٢/٦

(١) فتح المجيد ص ١٢٧

(٣) انظر : فتح المجيد ص ١٢٧ ، ١٢٨

إبراهيم - يكرهون التمايم كلها ، فهم يكرهونها فقط . وإن كان من حق المسلم المقتنع برأى أن يقيم الدليل على صحة ما ذهب إليه ، وبيان خطأ الرأى الآخر ، برفق وحكمة ، دون طعن أو تجريح للآخرين ، ودون عنف مصاحب للبيان .

وهذا ما جعل الإمام البنا يقول فى أصله هذا : « وكل ما كان من هذا الباب منكر نجب محاربه ، إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

والإمام محمد بن عبد الوهاب فى كتابه الشهير « التوحيد » يقول تعليقا على حديث « الرقى والتمايم والتؤكة شرك » : التمايم شئ يُعلّق على الأولاد من العين ، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يُرخص فيه ، ويجعله من المنهى عنه ، منهم : ابن مسعود رضى الله عنه (١) .

* * *

(١) فتح المجيد ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢)

الرُّقَى وَأَحْكَامُهَا

الرُّقى وأحكامها

الرُّقى : جمع رُقِيَّة ، وهى : العوذة التى يُرْقَى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع ولدغ الحيات والعقارب ونحوها ، كما يرْقَى بها من « العين » . يقول عروة :

فما تركا من عوذة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقيانى !

وفى القرآن الكريم : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ (١) أى لا راقى يرقيه - إذا بلغت روحه الترقوة والحلقوم - فيحميه ، فلاستفهام إنكارى .

وكانت الرقى معروفة عند العرب فى الجاهلية ، ولكنها كانت كثيراً ما تشتمل على شركيات مثل الاستعاذة بالجن والشياطين ، وسؤال غير الله ، وما لا يفهم معناه من الكلام .

ومن هنا حذر النبى ﷺ من هذا النوع من الرُّقى ، وهى التى اعتبرها شركاً ، كما فى حديث ابن مسعود المتقدم : « إِنَّ الرُّقى والتَّمَائم والتَّوَكُّلَ شرك » .

كما أنه شرع الرقى إذا كانت بكلام الله تعالى ، أو بذكره سبحانه ، وذكر أسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، والتوسل إلى الله فى منع الضر ، ورفع الأذى ، وشفاء المرضى ، ونحو ذلك .

وقد رقى جبريل رسول الله ﷺ ، ورقى عليه الصلاة والسلام نفسه ، ورقى غيره ، وأذن للصحابه بالرُّقية ، ما لم يكن فيها شرك . كما سنين ذلك .

(١) القيامة : ٢٦ - ٢٧

قال الإمام الخطابي : وكان عليه الصلاة والسلام قد رُقِيَ ورُقِيَ ، وأمر بها وأجازها ، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله ، فهي مباحة ومأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منه بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان كفراً ، أو قولاً يدخله الشرك (١) .

ومن ذلك : ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات بغير إذن الله تعالى وتقديره ، ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد سُئِلَ عمن يقول : يا أزران ، يا كيان ، فقال : هذه الألفاظ لا معنى لها في كلام العرب ، وكل اسم مجهول ، فليس لأحد أن يرقى به ، فضلاً عن أن يدعو به ، ولو عرف معناه ، وأنه صحيح لكره أن يدعو الله بغير العربية (٢) .

وإنما يرنحّص لمن لا يُحسن العربية : فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام (٣) .

وفي موضع آخر قال : إن المشركين يقرأون من العزائم والطلاسم والرقى ما فيه عبادة للجن وتعظيم لهم . وعامة ما بأيدي الناس من العزائم والطلاسم والرقى التي لا تُفقه بالعربية ، فيها ما هو شرك بالجن ، ولهذا نهى علماء المسلمين عن الرقى التي لا يُفقه معناها ، لأنها مظنة الشرك ، وإن لم يعرف الراقى إنها شرك (٤) .

وفي قاعدة التوسل والوسيلة قال : وكذلك الرقى والعزائم الأعجمية هي تتضمن أسماء رجال من الجن يُدعون ويُستغاث بهم ، ويُقسم عليهم بمن

(١) فتح المجيد ص ١٢٦

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢٨٤/٢٤ (٢) فتح المجيد ص ١٢٦

(٤) مجموع الفتاوى : ١٣/١٩ ، وانظر أيضاً ص ٦١ منه .

يعظمونه ، فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك فى بعض الأمور ، وهذا من جنس السحر والشرك (١) .

ومن هنا قال الحافظ ابن حجر : أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

- ١ - أن تكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته .
- ٢ - وأن تكون باللسان العربى ، أو بما يُعرف معناه من غيره ، ويُرخَّص لغير العربى بالترجمة إلى لسانه .
- ٣ - وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله تعالى (٢) .



● الرقية كالدواء من قدر الله تعالى :

والرقية لا تنافى القدر ولا تدفعه ، بل هى من قدر الله تعالى ، فإن الله عزَّ وجلَّ كما قدر المسببات قدر الأسباب ، وكما قدر النتائج قدر المقدمات ، فهو يُقدر أن هذا المريض يُشفى بتناوله للدواء الملائم ، وهذا يُشفى برقية رجل صالح ، وذلك بأسباب يتخذها ، فهذا كله من قدر الله تعالى .

والمؤمن الفقيه فى دينه هو الذى يدفع الأقدار بعضها ببعض ، كما أمر الله تعالى وشرع ، فهو يدفع قدر الجوع بتناول الغذاء ، وقدر العطش بشرب الماء ، وقدر الداء بتعاطى الدواء .

وفى هذا جاء الحديث الذى رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى خزيمة قال : سألت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ؛ أرايت رقى نسترقىها ،

(١) التوسل والوسيلة ص ١٥٦ ، طبع المكتب الإسلامى ببيروت .

(٢) انظر : فتح البارى : ١٠ / ١٩٥

ودواء نتداوى به ، وثُقة نتقيها : هل ترد من قَدَر الله شيئاً ؟ قال : « هي من قدر الله » (١) وبهذا ندفع قدر الله بقدر الله .

* *

● الرقية والطب الجسماني :

والرقية في حقيقتها : دعاء والتجاء إلى الله تعالى رب الناس ، ومذهب البأس ، أن يكشف الضر ، ويشفي السقيم ، فهي لون من الطب المعنوي أو الطب الروحي أو الإلهي .

والإسلام لا يمنع من استخدام الأدوية المعنوية والإلهية بجوار الأدوية الطبيعية ، وقد يكتفى في بعض الأحيان بإحدهما دون الأخرى .

وقد نقل الحافظ في « الفتح » عن ابن التين قوله : الرقي بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو الطب الروحاني ، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق ، حصل الشفاء بإذن الله تعالى ، فلما عزَّ هذا النوع ، فزع الناس إلى الطب الجسماني (٢) .

وأنا أقول : إنَّ الطب الجسماني مشروع ، حتى مع وجود ذلك النوع من الطب الروحي ، الذي يتجلى في الرقي الشرعية والتعاويذ النبوية .

والنبي ﷺ شرع لأُمَّته هذا وذاك جميعاً ، فتداوى ، وشرع التداوى للأمة ،

(١) رواه أحمد : ٤٢١/٣ ، والترمذي في الطب (٢٠٦٦) ، وقال : حديث حسن ، وفي بعض النسخ : حسن صحيح ، وابن ماجه في الطب حديث (٣٤٣٧) ، وله شاهد من حديث كعب بن مالك رواه ابن حبان في صحيحه (الإحسان : ٦١٠٠) ، وآخر من حديث حكيم بن حزام رواه الحاكم ومسكت عليه هو والذهبي (٤٠٢/٤) وفي موضع آخر : صحيحه ، ووافقه الذهبي (١٩٩/٤) كما رواه الطبراني ، وقال الهيثمي (٨٥/٥) : فيه صالح بن أبي الأخضر ضعيف يعتبر به ، وهو في سند الحاكم أيضاً .

(٢) الفتح : ١٩٦/١٠

وصحّت أحاديثه القولية والفعلية والتقريرية فى ذلك ، وعُرف فى عدد من كتب الحديث « كتاب الطب » .

وقال فى ذلك عليه الصلاة والسلام فيما رواه عنه أبو هريرة : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء » (١) .

وعن ابن مسعود مرفوعاً « إن الله لم يُنزل داءً إلا وأنزل له شفاء ، فتداؤوا به » (٢) وعن أسامة بن شريك : « تداؤوا يا عباد الله ، فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء إلا داء الهرم » (٣) .

وعن جابر بن عبد الله : « لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله تعالى » (٤) .

« ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » (٥) . ومع هذا شرع الرسول الكريم لأُمَّته الرُقَى والتعوذ بالله تعالى ، شرعها من الألم أو المرض الواقع ، وشرعها مما يُخاف ويُتوقع فى المستقبل .

(١) رواه البخارى فى أول كتاب الطب عن أبى هريرة (الفتح ١٣٤/١٠) حديث (٥٦٧٨) .

(٢) قال فى الفتح (١٣٥/١٠) : أخرجه عن ابن مسعود النسائى وصححه ابن حبان والحاكم .

(٣) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد والأربعة ، وصححه الترمذى وابن خزيمة والحاكم عن أسامة بن شريك (الفتح المذكور) .

(٤) رواه مسلم عن جابر ، المصدر السابق .

(٥) رواه النسائى وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم - المصدر نفسه .

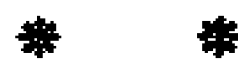
ففى حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يُعوّذُ الحسن والحسين بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة .

وروى الشيخان عن عائشة : « أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه ، ينفث بالمعوذتين ، ويمسح بهما وجهه » .

وعن خولة بنت حكيم مرفوعاً : « مَنْ نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله » (١) .

وعن سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، قال : سمعتُ رجلاً من أسلم ، قال : كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أصحابه ، فقال : يا رسول الله ؛ لُدِغْتُ الليلة فلم أتم حتى أصبحت ، قال : « ماذا » ؟ قال : عقرب ، قال : « أما إنك لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم تضرْك إن شاء الله » (٢) .

وهذا يدلنا على أن الرقى والتعاويذ المشروعة تكون للوقاية ، كما تكون للعلاج .



(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٥٦٧) .

(٢) رواه مسلم فى الذكر ، حديث (٢٧٠٩) ، باب : التعوذ من سوء القضاء . . . إلخ ، وأبو داود فى الطب - واللفظ له - (٣٨٩٨) ، وابن ماجه (٣٥١٨) ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً .

● نفع الأدوية الإلهية :

قال الإمام ابن القيم في « زاد المعاد » : واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله ، وتمنع من وقوعه ، وإن وقع لم يقع وقوعاً مضرّاً ، وإن كان مؤذياً ، والأدوية الطبيعية إنما تنفع ، بعد حصول الداء ، فالتعوذات والأذكار ، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب ، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه ، فالرقى والتعوذ تُستعمل لحفظ الصحة ، ولإزالة المرض .

أما الأول : فكما في « الصحيحين » من حديث عائشة كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) والمعوذتين ، ثم يمسح بهما وجهه ، وما بلغت يده من جسده (٢) .

وكما في « الصحيحين » : « مَنْ قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » (٣) .

وكما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ : « مَنْ نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » (٤) .

وكما في سنن أبو داود كان في السفر يقول بالليل : « يا أرض ، ربى

(١) الإخلاص : ١

(٢) رواه البخارى : ١٠٧/١١ في الدعوات ، باب : التعوذ والقراءة عند النوم ، ومسلم (٢١٩٢) في السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات .

(٣) رواه البخارى : ٥٠/٩ في فضائل القرآن ، باب : فضل سورة البقرة ، ومسلم (٨٠٨) في المسافرين ، باب : فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .

(٤) رواه مسلم (٢٧٨٨) في الذكر والدعاء ، باب : التعوذ من سوء القضاء .

وربك الله ، أعوذُ بالله من شرِّك وشرِّ ما فيك ، وشرِّ ما يدبُّ عليك ، أعوذُ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والد وما ولد « (١) .

وأما الثانى ، فكرتية اللديغ بالفاتحة (٢) .

● أفضل الرقى :

ولا خلاف أن أفضل الرقى ما كان بالصيغة الماثورة عن النبى ﷺ ، وكذلك ما أُنثر عن جبريل أمين الوحى عليه السلام : أنه رقى به النبى ﷺ ، وقد صحَّت عدة صيغ عن رسول الله ﷺ بالإضافة إلى الصيغة الجبريلية ، وينبغى للمسلم أن يرقى بها ، بما اشتملت عليه من أفضل أنواع الدعاء لله والاستعاذة بالله ، والالتجاء إليه ، والبراءة مما سواه ، فضلاً عما لها من حلاوة ، وما عليها من طلاوة .

والمسلم يُؤجَرُ بالرقية بهذه الرقى النبوية من وجهين :

الأول : وجه الذكر والدعاء والاستعانة بالله تعالى .

والثانى : وجه الاتباع للمأثور النبوى ، والتقيد به : ففيه الهدى والفلاح .

وهذه الرقى منها ما هو من القرآن الكريم مثل المعوذات : سورة الإخلاص ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (٤) ، ومثل فاتحة الكتاب ، التى رقى بها أصحابه وأقرهم عليها ، ومثل آية الكرسي .

ومنها : أذكار وأدعية ليست من القرآن الكريم ، وإن كانت مقتبسة من هُداه .

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٣) ، وأحمد : ١٣٢/٢ ، وفى سننه الزبير بن الوليد الشامى لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقى رجاله ثقات .

(٢) انظر زاد المعاد : ١٨٢/٤ - ١٨٤

(٣) أى سورة الفلق . (٤) أى سورة الناس .

● الصيغ النبوية للرقى :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان ، مسحه بيمينه . ثم قال : « أذهب البأس ، رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » (١) .

فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل ، أخذتُ بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع ، فانتزع يده من يدي ، ثم قال : « اللهم اغفر لى واجعلنى مع الرفيق الأعلى » .

قالت : فذهبت أنظر ، فإذا هو قد قضى (٢) .

وعنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أتى المريض يدعوه له قال : « أذهب البأس ، رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » (٣) .

وفى رواية عنها أنه كان يرقى بهذه الرقية : « أذهب البأس ، رب الناس ، بيدك الشفاء ، لا كاشف له إلا أنت » (٤) .

وروى البخارى عن عبد العزيز بن صهيب قال : دخلت أنا وثابت (البنانى) على أنس بن مالك ، فقال ثابت : يا أبا حمزة ؛ اشتكيتُ ! فقال أنس : ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، قال : « اللهم

(١) « لا يغادر سقماً » أى لا يترك ، والسُقْم بضم السين وإسكان القاف وفتحهما ، لغتان .

(٢) رواه مسلم فى السلام ، حديث (٢١٩١) (٤٦) ، وأول الحديث فى البخارى فى الطب : ٢٠٦/١٠ حديث (٥٧٤٣) .

(٣) رواه البخارى فى الطب ومسلم فى السلام (٢١٩١) (٤٨) .

(٤) رواه البخارى فى الطب (٥٧٤٤) ومسلم فى السلام (٢١٩١) (٤٩) .

ربّ الناس ، مُذهب الباس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت ، شفاء
لا يُغادر سَقَمًا « (١) .

* *

● رُقِيّة المريض بالمعوذات والنَفث :

وعن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله ، نفث
عليه بالمعوذات . فلما مرض مرضه الذي مات فيه ، جعلت أنفث عليه
وأمسحه بيد نفسه ، لأنها كانت أعظم بركة من يدي (٢) ، ومعنى : « نفث
عليه » أي نفخ نفخاً لطيفاً بلا ريق ، أو مع ريق خفيف .

وفي رواية عنها : أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات ،
وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح عنه يده ، رجاء بركتها (٣) .

وعن عبد الرحمن بن السائب ابن أخي ميمونة ، أن ميمونة قالت لى :
يا ابن أخي ؛ ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ ؟ قلت : بلى ، قالت : « باسم
الله أرقيك ، والله يشفيك ، من كل داء فيك ، أذهب الباس رب الناس ،
اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت » (٤) .

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي ، أنه شكّا إلى رسول الله ﷺ وجعاً ،
يجده في جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضع يدك على الذي

(١) رواه البخارى فى الطب ، باب : رقية النبى ، البخارى مع الفتح : ٢٠٦/١٠ ،
حديث (٥٧٤٢) .

(٢) رواه مسلم فى السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات ، حديث (٢١٩٢)
(٥٠) ، والحديث عند البخارى فى الطب أيضاً .

(٣) رواه مسلم فى السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات ، حديث (٢١٩٢) (٥١) .

(٤) رواه النسائى فى « عمل اليوم والليلة » (١٠٢١) ، وأحمد : ٣٣٢/٦ ، وابن
حبان : (الإحسان : ٦٠٩٥) ، والطحاوى : ٣٢٩/٤ ، والطبرانى : ١٠٦١/٢٣ من
طريقين عن معاوية بن صالح به .

وذكره الهيثمى فى المجمع : ١١٣/٥ ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ،
وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ، وقد وثق وفيه ضعف ، وعلى كل حال إسناده
حسن .

تألم من جسدك ، وقل : باسم الله - ثلاثاً - وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » (١) .

وفى رواية أبي داود : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد » (٢) .

وروى مسلم عن أبي سعيد : أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد ؛ اشتكيت ؟ قال : نعم ، قال : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين حاسد الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » (٣) .

وروى أبو داود عن أبي الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له فليقل : ربنا الله الذى فى السماء ، تقدّس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتك فى السماء ، فاجعل رحمتك فى الأرض ، اغفر لنا حُوبنا (٤) وخطايانا ، أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ بإذن الله » (٥) .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ كان يُعلمهم من الفزع كلمات : « أعوذ بكلمات الله التامة ، من غضبه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ، وكان عبد الله بن عمر يعلمهن مَنْ عقل من بنيهِ ، ومَنْ لم يعقل كتبه فأعلقه عليه (٦) .

(١) رواه مسلم فى السلام (٢٢٠٢) ، باب : استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء .

(٢) رواه أبو داود فى الطب (٣٨٩١) .

(٣) رواه مسلم فى السلام - حديث (٢١٨٦) .

(٤) قال الخطابى : الحوب : الإثم ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَثِيراً ﴾ (النساء : ٢) ، والحوية أيضاً - مفتوحة الحاء مع إدخال الهاء .

(٥) رواه أبو داود فى الطب (٣٨٩٢) ، وأحمد : ٢١/٦ ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً وفى سننه مقال .

(٦) رواه أبو داود فى الطب (٣٨٩٣) ، والترمذى فى الدعوات ، حديث (٣٥١٩) ،

باب : دعاء مَنْ أوى إلى فراشه ، وقال : حديث حسن غريب ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً ، ورواه أحمد أيضاً ، وصححه الشيخ شاکر ، وقد تقدّم .

وعن يزيد بن أبي عبيد ، قال : رأيت أثر ضربة في ساق سلمة ، فقلت : ما هذه ؟ قال : أصابتنى يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة ، فأتى به رسول الله ﷺ فنفت في ثلاث نفثات ، فما اشتكىتها حتى الساعة (١) .

وعن عائشة ، قالت : كان النبي ﷺ يقول للإنسان إذا اشتكى ، يقول بريقه ، ثم قال به في التراب : « تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يُشفى سقيمنا » (٢) .



● الرقية بفاتحة الكتاب :

ومن أعظم الرقى : الرقية بفاتحة الكتاب وأم القرآن .

عن خارجة بن الصلت التميمي ، عن عمه (٣) أنه أتى رسول الله ﷺ فأسلم ، ثم أقبل راجعاً من عنده ، فمرَّ على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد ، فقال أهله : إِنَّا حَدَّثْنَا أَنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا قَدْ جَاءَ بِخَيْرٍ ، فَهَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ تَدَاوِيهِ ؟ فرقيته بفاتحة الكتاب ، فبرأ ، وفي رواية : أنه رقاها بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية . . فكأنما أنشط من عقال . قال : فأعطوني مائة شاة ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « هل إلا هذا » ؟ ، وقال مسدد في موضع آخر : « هل قلت غير هذا » ؟ قلت : لا ، قال : خذها ، فلعمري لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق » (٤) .

(١) رواه البخاري في المغازي : ١٧٠ / ٥ ، باب : غزوة خيبر ، وأبو داود في الطب (٣٨٩٤) .

(٢) رواه البخاري في الطب : ١٧١ / ٧ ، باب : رقية النبي ﷺ ، ومسلم في السلام ، حديث (٢١٩٤) ، باب : استحباب الرقية . . إلخ ، وأبو داود في الطب (٣٨٩٥) ، وابن ماجه في الطب ، حديث (٣٥٢١) ، باب : ما عوذ به النبي ﷺ ، ونسبه المنذرى للنسائي أيضاً .

(٣) عم خارجة بن الصلت : هو علاقة بن صبحار السليطي .

(٤) رواه أحمد : ٢١١ / ٥ ، وأبو داود في البيوع (٣٤٢٠) ، وفي الطب (٣٨٩٦) و (٣٨٩٧) ، عمل اليوم والليلة (١٠٣٢) ، والطبراني : ٥٠٩ / ١٧ ، وصححه ابن حبان : (الإحسان : ٦١١٠ ، ٦١١١) ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي : ٥٥٩ / ١ ، ٥٦٠ .

وعن أبي سعيد : أن رهطاً من أصحاب رسول الله ﷺ انطلقوا في سفرة سافروها حتى نزلوا في حى من أحياء العرب ، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ، فلُدِغَ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شيء ، لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتهم هؤلاء رهط الذين قد نزلوا بكم ، لعله أن يكون عند بعضهم شيء ، فأتوهم فقالوا : يا أيها رهط ، إن سيدنا لُدِغَ ، فسعينا له بكل شيء ، لا ينفعه شيء ، فهل عند أحد منكم شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إنى لراق ، ولكن والله لقد استضافناكم فلم تُضيفونا ، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلًا ، فصالحوهم على قطع من الغنم ، فانطلق فجعل يتفل ويفرأ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ - يعنى الفاتحة - حتى لكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى ما به قَلْبَةً . قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقسما ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ، فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ أصبتم ، اقسما واضربوا لى معكم بسهم » (١) ، ومعنى : « ما به قَلْبَةً » ، أى ما به ألم يقلب لأجله على الفراش .



● من فقه الحديث :

قال الحافظ فى « الفتح » : « فى الحديث جوار الرقية بكتاب الله ، ويلتحق به ما كان بالذكر والدعاء المأثور ، وكذا غير المأثور عما لا يخالف ما فى المأثور ، وفيه مقابلة من امتنع من المكرمة بنظير صنيعة لما صنعه الصحابى من الامتناع من الرقية فى مقابلة امتناع أولئك من ضيافتهم ، وفيه إمضاء ما يلتزمه المرء على نفسه ، لأن أبا سعيد التزم أن يرقى ، وأن يكون الجُعل له ولاصحابه ،

(١) الحديث متفق عليه ، واللفظ للبخارى فى الطب - حديث (٥٧٤٩) .

وأمره النبي ﷺ بالوفاء بذلك ، وفيه جواز قبض الشيء الذي ظاهره الحل ، وترك التصرف فيه إذا عرضت فيه شبهة ، وفيه الاجتهاد عند فقد النص ، وعظمة القرآن في صدور الصحابة ، خصوصاً الفاتحة ، وفيه أن الرزق المقسوم لا يستطيع مَنْ هو في يده منعه ممن قسم له ، لأن أولئك منعوا الضيافة ، وكان الله قسم للصحابة في مالهم نصيباً ، فمنعواهم ، فسبب لهم لدغ العقرب حتى سيق لهم ما قسم لهم ، وفيه الحكمة البالغة ، حيث اختص بالعقاب مَنْ كان رأساً في المنع ، لأن من عادة الناس الائتمار بأمر كبيرهم ، فلما كان رأسهم في المنع ، اختص بالعقوبة دونهم جزاءً وفاقاً (١) .



● عظمة الفاتحة :

وقال الإمام ابن القيم في « زاد المعاد » : « إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع ، فما الظن بكلام رب العالمين ، ثم بالفاتحة التي لم ينزل في القرآن ولا غيره من الكتب مثلها ؟ لتضمنها جميع معاني كتب الله المشتمة على ذكر أصول أسماء الرب تعالى ومجامعها ، وهي : الله ، والرب ، والرحمن ، وإثبات المعاد ، وذكر التوحيدين : توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية ، وتخصيصه سبحانه بذلك ، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه ، وما العباد أحوج شيء إليه ، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم ، والمتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته ، بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، والاستقامة عليه إلى الممات ، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى مُنعم عليه بمعرفة الحق ، والعمل به ، ومحبته ، وإيثاره ، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له ، وضال بعدم معرفته له ، وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر ، والشرع ، والأسماء ، والصفات ، والمعاد ، والنبوات ، وتركية

(١) فتح الباري : ٤/٤٥٧

النفوس ، وإصلاح القلوب ، وذكر عدل الله وإحسانه ، والرد على جميع أهل البدع والباطل ، كما ذكرنا ذلك فى كتابنا الكبير « مدارج السالكين » فى شرحها .

وحقيق بسورة هذا بعض شأنها ، أن يُستشفى بها من الأدواء ، ويرقى بها اللدين .

وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله ، وتفويض الأمر كله إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وسؤاله مجامع النعم كلها ، وهى الهداية التى تجلب النعم ، وتدفع النقم ، من أعظم الأدوية الشافية الكافية .

وقد قيل : إن موضع الرقية منها : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) ، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء ، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل ، والالتجاء والاستعانة ، والافتقار والطلب ، والجمع بين أعلى الغايات ، وهى عبادة الرب وحده ، وأشرف الوسائل وهى الاستعانة به على عبادته ، ما ليس فى غيرها . ولقد مرّ بى وقت بمكة سقطت فيه ، وفقدت الطبيب والدواء ، فكنت أتعالج بها ، آخذ شربة من ماء زمزم ، وأقرأها عليها مراراً ، ثم أشربه ، فوجدتُ بذلك البرء التام ، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع ، فأنفع بها غاية الانتفاع (٢) .

* *

● من أى شىء تكون الرقية ؟

أثبتت الأحاديث الصحاح : أن الرقية مشروعة من كل الآلام والأمراض التى تصيب المسلم .

روى مسلم فى صحيحه فى باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة

(٢) زاد المعاد : ١٧٧/٤ ، ١٧٨

(١) الفاتحة : ٥

والنظرة ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن الرقية ؟ فقالت : رخص رسول الله ﷺ لأهل بيت من الأنصار في الرقية ، من كل ذي حمة (١) .

الحمة في السم : ومعناه : أذن في الرقية من كل ذات سم .

وعن عائشة أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه ، أو كانت به قرحة أو جرح ، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا ، ووضع سفيان سبأته بالأرض ثم رفعها : « باسم الله تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، ليشفى به سقيمنا ، بإذن ربنا » (٢) .

وعنها رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقى من العين (٣) .

وعن أنس قال : رخص رسول الله ﷺ ، في الرقية من العين ، والحمة ، والنملة (٤) .

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لجارية ، في بيت أم سلمة ، زوج النبي ﷺ رأى بوجهها سفعة فقال : « بها نظرة فاسترقوا لها » يعني بوجهها صفرة (٥) .

« السفعة » قد فسرهما في الحديث بالصفرة ، وقيل : سواد . وقال

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٩٣) .

(٢) « أرضنا ، بريقة » قال جمهور العلماء : المراد بأرضنا هنا : جملة الأرض . وقيل : أرض المدينة خاصة لبركتها ، والريقة : أقل من الريق ، ومعنى الحديث أنه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة ، ثم يضعها على التراب فيعلق بها منه شيء ، فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل ، ويقول هذا الكلام في حال المسح .

(٣) متفق عليه وسيأتي . (٤) رواه مسلم في السلام (٢١٩٦) (٥٨) .

(٥) رواه مسلم في السلام .

ابن قتيبة : هي لون يخالف لون الوجه ، و « النظرة » هي العين ، أي أصابتها عين ، وقيل : هي المس أي مس الشيطان .

وعن أبي الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : رخص النبي ﷺ لآل حزم في رقية الحية . وقال لأسماء بنت عميس : « مالي أرى أجسام بني أخي ضارعة (أي نحيفة) تصيبهم الحاجة » ؟ قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم ، قال : « ارقبهم » ، قالت : فعرضت عليه ، فقال : « ارقبهم » (١) .

قال أبو الزبير : وسمعت جابر بن عبد الله يقول : لدغت رجلاً منا عقرب ، ونحن جلوس مع رسول الله ﷺ ، فقال رجل : يا رسول الله ؛ أرقى ؟ - وفي رواية : أرقبه ؟ - قال : « مَنْ استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » (٢) .

وعن جابر أيضاً قال : كان لي خال يرقى من العقرب ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى : قال : فأتاه ، فقال : يا رسول الله ؛ إنك نهيت عن الرقى ، وأنا أرقى من العقرب ، فقال : « مَنْ استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » (٣) .

وعن جابر أيضاً ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقى ، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ؛ إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرقى ، قال : فعرضوها عليه ، فقال : « ما أرى بأساً ، مَنْ استطاع منكم أن ينفع أخاه فليتنفعه » (٤) .

* *

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٩٨) .

(٢) رواه مسلم في السلام (٢١٩٩) (٦١) .

(٣) رواه مسلم في السلام (٢١٩٩) (٦٢) .

(٤) رواه مسلم في السلام (٢١٩٩) (٦٣) .

● لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك :

وعن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ؛ كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « اعرضوا على رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » (١) .

روى أبو داود عن الشفاء (٢) بنت عبد الله قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة ، فقال لي : « ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة » ؟ (٣) .

والنملة : قروح تخرج في الجنين ، ويقال : إنها تخرج أيضاً في غير الجنب ، تُرقى فتذهب بإذن الله عزّ وجلّ .

وعن عثمان بن حكيم : حدثتني جدتي الرباب قالت : سمعت سهل ابن حنيف يقول : مررنا بسيل فدخلت ، فاغتسلت فيه ، فخرجت محموماً ، فسمى ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « مروا أبا ثابت يتعوذ » ، قالت : فقلت : يا سيدى (٤) ، والرقى صالحة ؟ فقال : « لا رقية إلا في نفس أو حمة أو لدغة » (٥) .

قال أبو داود : الحمة من الحيات وما يلسع .

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٠) .

(٢) الشفاء : اسمها ليلى ، وغلب عليها الشفاء ، قرشية عدوية ، أسلمت قبل الهجرة ، وبايعت النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يأتيها ويقبل في بيتها ، وكان عمر رضى الله عنه يُقدّمها في الرأي ويرضاها ويفضلها ، وربما ولاها شيئاً من أمر السوق ، والياء في « علمتها الكتابة » ناشئة عن إشباع الكسرة .

(٣) رواه أبو داود في الطب ، حديث (٣٨٨٧) .

(٤) قال الخطابي : النفس : العين ، وفيه بيان جواز أن يقول الرجل لرئيسه من الأدميين : يا سيدى . (٥) رواه أبو داود في الطب (٣٨٨٨) .

وأَنْفَعُ مَا يَكُونُ الرُّقِيَّةُ مِنَ الْعَيْنِ ، وَخَصُوصاً عَيْنَ الْحَاسِدِ ، إِذَا حَسَدَ .



● كَلَامُ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي تَأْثِيرِ الْعَيْنِ وَالرُّقِيَّةِ مِنْهَا :

كَتَبَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِ « رَادِّ الْمَعَادِ فِي هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ » فَصُولاً فِي هَدْيِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْعِلَاجِ بِالْأَدْوِيَةِ الرُّوحَانِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَفْرَدَةِ ، وَالْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا ، وَمِنَ الْأَدْوِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ :

مِنْهَا : فَصَلٌ فِي هَدْيِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عِلَاجِ الْمَصَابِ بِالْعَيْنِ ، وَفِيهِ ذِكْرُ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ مِنْهَا :

مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ « فِي صَحِيحِهِ » عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ ، لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » (١) .

وَفِي « صَحِيحِهِ » أَيْضاً عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ فِي الرُّقِيَّةِ مِنَ الْحُمَةِ وَالْعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ (٢) .

وَفِي « الصَّحِيحِينَ » مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْعَيْنُ حَقٌّ » (٣) .

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٨٨) فِي السَّلَامِ ، بَابُ : الطَّبِّ وَالْمَرَضِ وَالرُّقَى ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الْقَدَرَ لَا يَسْبِقُهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كَانَ يُسْبِقُ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ لِقُوَّتِهَا وَسُرْعَةُ تَأْثِيرِهَا .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٩٦) فِي السَّلَامِ ، بَابُ : اسْتِحْبَابِ الرُّقِيَّةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ وَالْحُمَةِ وَالنَّظَرَةِ ، وَالْحُمَةُ بِالتَّخْفِيفِ : السُّمُّ ، وَيُطْلَقُ عَلَى إِبْرَةِ الْعَقْرَبِ لِلْمَجَاوِرَةِ ، لِأَنَّ السُّمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَالنَّمْلَةُ : قَرُوحٌ تَخْرُجُ فِي الْجَنْبِ .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ : ١٧٣/١٠ ، فِي الطَّبِّ ، بَابُ : الْعَيْنِ حَقٌّ ، وَمُسْلِمٌ (٢١٨٧) فِي السَّلَامِ ، بَابُ : الطَّبِّ وَالْمَرَضِ وَالرُّقَى .

وفى « الصحيحين » عن عائشة قالت : أمرنى النبى ﷺ - أو أمر - أن نسترقى من العين (١) .

وذكر الترمذى : أن أسماء بنت عميس ، قالت : يا رسول الله ؛ إن بنى جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم ؟ فقال : « نعم ، فلو كان شئ يسبق القضاء لسبقته العين » ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح (٢) .

قال الإمام ابن القيم : والعين : عينان : عين إنسية ، وعين جنية ، فقد صح عن أم سلمة ، أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال : « استرقوا لها ، فإن بها النظرة » (٣) .

قال الحسين بن مسعود الفراء البغوى : وقوله : « سفعة » أى نظرة ، يعنى : من الجن . يقول : بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح (٤) .

وعن أبى سعيد ، أن النبى ﷺ كان يتعوذ من الجن ، ومن عين الإنسان (٥) .

فأبطلت طائفة ممن قلّ نصيبهم من السمع والعقل أمر العين ، وقالوا : إنما

(١) رواه البخارى : ١٦٩/١٠ - ١٧٠ فى الطب : باب : رقية العين ، ومسلم (٢١٩٥) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٢) رواه الترمذى (٢٠٥٩) ، وأحمد : ٤٣٨/٦ ، وابن ماجه (٣٥١٠) ، وسنده جيد .

(٣) أخرجه البخارى : ١٧١/١٠ - ١٧٢ فى الطب : باب : رقية العين ، ومسلم (٢١٩٧) فى السلام ، باب : رقية العين ، والسفعة - بفتح السين ويجوز ضمها وسكون الفاء - سواد فى الوجه ، ومنه سفعة الفرس : سواد ناصيته ، وعن الأصمعى : حمرة يعلوها سواد ، وقيل : صفرة ، وقيل : سواد مع لون آخر ، وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه ، وكلها متقاربة .

(٤) انظر شرح السنة : ١٦٣/١٣ ، بتحقيق شعيب الأرناؤوط .

(٥) أخرجه الترمذى (٢٠٥٩) ، والنسائى : ٢٧١/٨ ، وابن ماجه (٣٥١١) ، وحسنه الترمذى ، وثامه : « فلما نزلت المعوذتان ، أخذ بهما وترك ما سوى ذلك » .

ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها ، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ، ولا تنكره ، وإن اختلفوا في سببه وجهة تأثير العين .

فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيّفت نفسه بالكيفية الرديئة ، انبعث من عينه قوة سُمّية تتصل بالمعين ، فيتضرر ، قالوا : ولا يُستنكر هذا ، كما لا يُستنكر انبعثات قوة سُمّية من الأفعى تتصل بالإنسان ، فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى ، أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذاك العائن .

وقالت فرقة أخرى : لا يُستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً ، وهذا مذهب مُنكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم ، وهؤلاء قد سدّوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين .

قال ابن القيم : « ولا ريب أن الله سبحانه خلق فى الأجسام والأرواح قُوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواص وكميات مؤثرة ، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مُشاهد محسوس ، وأنت ترى الوجه كيف يحمّر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه ، ويصفر صفرة شديدة إذا نظر من يخاف إليه ، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه ، وهذا كله بتأثير الأرواح ، ولشدة ارتباطها بالعين يُنسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكمياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية

للمحسود أذىً بيناً ، ولهذا أمر الله - سبحانه - رسوله أن يستعيد به من شره ، وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة ، وتقابل المحسود ، فتؤثر فيه بتلك الخاصية ، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى ، فإن السمَّ كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها ، انبعث منها قوة غضبية ، وتكيفت بكيفية خبيثة مؤذية ، فمنها ما تشتد كلفتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين ، ومنها ما تؤثر في طمس البصر ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الأبر ، وذى الطفيتين من الحيات : « إنهما يلتامسان البصر ، ويسقطان الحبل » (١) .

ومنها ما تؤثر في الإنسان كلفتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكلفتها الخبيثة المؤثرة ، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قلَّ علمه ومعرفته بالطبيعة والشرعية ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية ، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل ، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه ، وإن لم يره ، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (٣) ، فكل عائن حاسد ،

(١) أخرجه البخارى : ٢٤٨/٦ فى بدء الخلق ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ (البقرة : ١٦٤) ، ومسلم (٢٢٣٣) فى السلام ، باب : قتل الحيات وغيرها ، من حديث ابن عمر ، والطفيتان : هما الخططان الأبيضان على ظهر الحية ، والأبر : قصير الذنب ، وقوله : يلتامسان البصر ، قال الخطابى : فيه تأويلان ، أحدهما : معناه يخطفان البصر ويطمسانه بمجرد نظرهما إليه بخاصة جعلها الله تعالى فى بصريهما إذا وقع على بصر الإنسان ، والثانى : أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش ، والأول أصح وأشهر . (٢) القلم : ٥١ (٣) الفلق : ٤ - ٥

وليس كل حاسد عائناً ، فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه ، أثّرت فيه ، ولا بد ، وإن صادفته حذراً شاكياً السلاح لا منفذ فيه للسهم ، لم تُؤثّر فيه ، وربما رُدَّت السهام على صاحبها ، وهذا بمثابة الرمى الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وذاك من الأجسام والأشباح ، وأصله من إعجاب العائن بالشئ ، ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سُمِّها بنظرة إلى المعين ، وقد تعين الرجل نفسه ، وقد تعين بغير إرادته ، بل بطبعه ، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانى ، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن مَنْ عُرِفَ بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما يُنفَق عليه إلى الموت ، وهذا هو الصواب قطعاً .

والمقصود . . العلاج النبوى لهذه العلة ، وهو أنواع ، وقد روى أبو داود فى سننه عن سهل بن حنيف ، قال : مررنا بسيل ، فدخلت ، فاغتسلت فيه ، فخرجت محموماً ، فتمنى ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « مُرُوا أبا ثابت يتعوذ » ، قال : فقلت : يا سيدى ؛ والرقى صالحة ؟ فقال : « لا رقية إلا فى نفس ، أو حُمة أو لدغة » (١) .

والنفس : العين ، يقال : أصابت فلاناً نفساً ، أى : عين . والنفاس : العائن . واللدغة - بدال مهمة وغين معجمة - وهى ضربة العقرب ونحوها . فمن التعوذات والرقى : الإكثار من قراءة المعوذتين ، وفاتحة الكتاب ، وآية الكرسي .

(١) رواه أبو داود (٣٨٨٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى ، وفى سننه « رباب » جده عثمان بن حكيم ، لم يوثقها غير ابن حبان ، وباقى رجاله ثقات .

ومنها التعوذات النبوية نحو : « أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق » (١) .

ونحو : « أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » .

ونحو : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، من شرِّ ما خلق وذراً وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شرِّ ما يعرج فيها ، ومن شرِّ ما ذراً في الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شرِّ فتن الليل والنهار ، ومن شرِّ طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن » .

ومنها : « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شرِّ عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » .

ومنها : « اللّهم إني أعوذُ بوجهك الكريم ، وكلماتك التامات من شرِّ ما أنت آخذ بناصيته ، اللّهم أنت تكشف المأثم والمغرم ، اللّهم إنه لا يُهزم جندك ، ولا يُخلف وعده ، سبحانه وبحمده » .

ومنها : « أعوذُ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه ، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، وأسماء الله الحسنی ، ما علمتُ منها وما لم أعلم ، من شرِّ ما خلق وذراً وبرأ ، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ لا أطيق شرّه ، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ أنت آخذ بناصيته ، إن ربي على صراط مستقيم » .

ومنها : « اللّهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله ، أعلم أنَّ الله على كل شيء قدير ، وأنَّ الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، اللّهم إني أعوذُ بك من شرِّ نفسي ، وشرِّ

(١) رواه مسلم في السلام ، باب : الذكر والدعاء (٢٧٠٩) .

الشيطان وشركه ، ومن شرَّ كل دابة أنت أخذ بناصيتها ، إنَّ ربي على صراط مستقيم .

وإن شاء قال : « تَحَصَّنْتُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَهِي وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَاعْتَصَمْتُ بِرَبِّي وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت ، وَاسْتَدْفَعْتُ الشَّرَّ بِلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، حَسْبِيَ الرَّبُّ مِنَ الْعِبَادِ ، حَسْبِيَ الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِ ، حَسْبِيَ الرَّازِقُ مِنَ الْمَرْزُوقِ ، حَسْبِيَ الَّذِي هُوَ حَسْبِي ، حَسْبِيَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفَى ، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ دَعَا ، وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ مَرْمَى ، حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

وَمَنْ جَرَّبَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَالْعُودَ ، عَرَفَ مَقْدَارَ مَنَفْعَتِهَا ، وَشِدَّةَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَهِيَ تَمْنَعُ وَصُولَ أَثَرِ الْعَائِنِ ، وَتَدْفَعُهُ بَعْدَ وَصُولِهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ إِيْمَانِ قَائِلِهَا ، وَقُوَّةِ نَفْسِهِ ، وَاسْتِعْدَادِهِ ، وَقُوَّةِ تَوَكُّلِهِ وَثَبَاتِ قَلْبِهِ ، فَإِنَّهَا سِلَاحٌ وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ .

وَإِذَا كَانَ الْعَائِنُ يَخْشَى ضَرَرَ عَيْنِهِ وَإِصَابَتَهَا لِلْمَعِينِ ، فَلْيَدْفَعْ شَرَّهَا بِقَوْلِهِ :
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا عَانَ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ :
« أَلَا بَرَكْتَ » (١) ، أَيْ : قُلْتَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ .

وَمَا يُدْفَعُ بِهِ إِصَابَةُ الْعَيْنِ قَوْلٌ : مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى شَيْئًا يَعْجَبُهُ ، أَوْ دَخَلَ حَاطًا مِنْ حَيْطَانِهِ ، قَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وَمِنْهَا رُقِيَّةُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلنَّبِيِّ ﷺ الَّتِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي « صَحِيحِهِ » :

(١) رَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ : ٩٣٨/٢ ، فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْعَيْنِ وَرِجَالِهِ ثَقَاتٌ .

« بسم الله أرقيك » ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد
الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » (١) .

ورأى جماعة من السلف أن تُكتب له الآيات من القرآن ، ثم يشربها ،
قال مجاهد : لا بأس أن يكتب القرآن ، ويغسله ، ويسقيه المريض ، ومثله
عن أبي قلابة ، ويُذكر عن ابن عباس : أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسر عليها
ولادها أثر من القرآن ، ثم يُغسل وتُسقى ، وقال أيوب : رأيت أبا قلابة كتب
كتاباً من القرآن ، ثم غسله بماء ، وسقاه رجلاً كان به وجع .
ذكر هذا كله ابن القيم في « زاد المعاد » (٢) .

* *

● مَنْ يرقى ؟

وينبغي أن يكون الراقى مسلماً صالحاً ، حتى يكون مظنة لاستجابة الدعاء ،
سواء أكان رجلاً أم امرأة ، وإن جاز أن يكون الراقى غير مسلم ، إذا التزم
برقى المسلمين ، وهذا أمر غير مأمون .

روى ابن حبان عن عائشة : أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، وامرأة
تعالجها أو ترقئها ، فقال : « عاجليها بكتاب الله » (٣) .

قال أبو حاتم ابن حبان : قوله صلى الله عليه وسلم : « عاجليها بكتاب
الله » أراد : عاجليها بما يبيحه كتاب الله ، لأن القوم كانوا يرقون في الجاهلية

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٥) في السلام ، باب : الطب والمرض والرقى .

(٢) الجزء الرابع ، ص ١٦٢ - ١٧١ ، طبع الرسالة ، بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط .

(٣) الإحسان : ٤٦٤/١٣

بأشياء فيها شرك ، فزجرهم بهذه اللفظة عن الرُقَى إلا بما يبيحه كتاب الله دون ما يكون شركاً (١) .

وفى بعض الروايات أن هذه المرأة كانت يهودية ، فقد روى فى العين ، باب : التعوذ والرقية من المرض ، والبيهقى عن يحيى بن سعيد ، عن عمرة بنت عبد الرحمن : أن أبا بكر الصديق دخل على عائشة ، وهى تشتكى ، ويهودية ترقىها ، فقال أبو بكر : ارقىها بكتاب الله (٢) .

قال الزرقانى فى « شرح الموطأ » : قال الربيع : سألت الشافعى عن الرقية ، فقال : لا بأس أن ترقى بكتاب الله وبما يُعرف من ذكر الله ، قلت : أيرقى أهل الكتاب المسلمين ؟ قال : نعم ، إذا رَقُوا من كتاب الله (٣) .



● الرُقَى المكتوبة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ويجوز أن يكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله وذكره بالمدا المباح ويُغسل ويُسقى ، كما نص على ذلك أحمد وغيره ، قال عبد الله بن أحمد : قرأت على أبى : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن أبى لى ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إذا عسر على المرأة ولادتها فليكتب : بسم الله ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤) ، ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ

(١) انظر الإحسان (٦٠٩٨) ، قال محققه : رجاله ثقات رجال الشيخين ، إلا أن أبا أحمد الزبيرى . وهو محمد بن عبد الله بن الزبير - قال محمد : كان كثير الخطأ فى حديث سفيان ، وقال أبو حاتم : عابد مجتهد حافظ للحديث له أوهام .

(٢) الموطأ : ٩٤٣/٢ ، والسنن الكبرى : ٣٤٩/٩

(٣) الزرقانى على الموطأ : ٣٢٨/٤ (٤) النازعات : ٤٦

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ، بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ . قال أبى : حدثنا أسود بن عامر بإسناده بمعناه ، وقال :
يُكْتَبُ فِي إِنْاءٍ نَظِيفٍ فَيُسْفَى ، قال أبى : وزاد فيه وكيع : فَتُسْفَى وَيُنْضَحُ مَا دُونَ
سُرَّتِهَا ، قال عبد الله : رأيت أبى يكتب للمرأة في جام أو شيء نظيف .

وقال أبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحيرى : أخبرنا الحسن
ابن سفيان النسوى ، حدثنى عبد الله بن أحمد بن شبيب ، حدثنا على
ابن الحسن بن شقيق ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، عن
ابن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إذا
عسر على المرأة ولادها فليكتب : بسم الله ، لا إله إلا الله العلى العظيم ،
لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم ،
والحمد لله رب العالمين : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ،
﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ، بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ
إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال على : يكتب في كاغدة فيعلق على عضد المرأة ،
قال على : وقد جربناه فلم نر شيئا أعجب منه ، فإذا وضعت تحله سريعا ثم
تجعله في خرقة أو تحرقه (٢) .

هذا وأنا أفضل أن تكون الرقى مقروءة شفاهاً ، كما كان يفعل النبى ﷺ .



● الرد على من كره الرقى بإطلاق :

روى الشيخان وغيرهما - واللفظ للبخارى - عن ابن عباس رضى الله
عنهما قال : خرج علينا النبى ﷺ يوماً فقال : « عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ ، فَجَعَلَ
يَمْرُ النَبِيِّ مَعَ الرَّجُلِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَ الرَّهْطِ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ
مَعَ أَحَدٍ ، وَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الْأَفْقَ ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي ، فَقِيلَ :

(١) الاحقاف : ٣٥ (٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦٤/١٩ - ٦٥

هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى : انظر ، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفق ، فقيل لى : انظر هكذا وهكذا ، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفق ، فقيل : هؤلاء أمتك ، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب .

فتفرَّق الناس ولم يبين لهم ، فتذاكر أصحاب النبى ﷺ فقالوا : أما نحن فولدنا فى الشرك ، ولكننا آمنا بالله ورسوله ، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ النبى ﷺ فقال : « هم الذين لا يتطهرون ، ولا يكتوون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون » ، فقام عكاشة بن محصن فقال : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : « سبقك بها عكاشة » (١) .

تمسك بهذا الحديث من كره الرقى والكى من بين سائر الأدوية وزعم أنهما قادحان فى التوكل دون غيرهما ، وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة :

أحدها : قاله الطبرى والمازرى وطائفة : أنه محمول على من جانب اعتقاد الطبائعين فى أن الأدوية تنفع بطبعها كما كان أهل الجاهلية يعتقدون .

وقال غيره : الرقى التى يُحمد تركها ما كان من كلام الجاهلية ، ومن الذى لا يُعقل معناه لاحتمال أن يكون كفراً ، بخلاف الرقى بالذكر ونحوه .

وتعقبه عياض وغيره بأن الحديث يدل على أن للسبعين ألفاً مزية على غيرهم وفضيلة انفردوا بها عن شاركهم فى أصل الفضل والديانة ، ومن كان يعتقد أن الأدوية تؤثر بطبعها أو يستعمل رقى الجاهلية ونحوها فليس مسلماً ، فلم يسلم هذا الجواب .

ثانيها : قال الداودى وطائفة : إن المراد بالحديث الذين يجتنبون فعل ذلك فى الصحة خشية وقوع الداء ، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا ،

(١) رواه البخارى فى الطب ، باب : من لم يرق - حديث (٥٧٥٢) ، ومسلم فى السلام .

وقد قَدِّمْتُ هذا عن ابن قتيبة وغيره في باب : « مَنْ اُكْتُوى » ، وهذا اختيار ابن عبد البر ، غير أنه معترض بما قَدِّمته من ثبوت الاستعاذة قبل وقوع الداء .

ثالثها : قال الحلبي : يُحْتَمَلُ أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث : مَنْ غفل عن أحوال الدنيا وما فيها من الأسباب المُعَدَّة لدفع العوارض ، فهم لا يعرفون الاكتواء ولا الاسترقاء ، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء والاعتصام بالله ، والرضا بقضائه ، فهم غافلون عن طب الأطباء ورقى الرُّقاة ، ولا يحسنون من ذلك شيئاً ، والله أعلم .

رابعها : أن المراد بترك الرُّقى والكي : الاعتماد على الله في دفع الداء والرضا بقدره ، لا القدح في جواز ذلك ، لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة وعن السلف الصالح ، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب ، وإلى هذا نحا الخطابي ومَنْ تبعه . قال ابن الأثير : هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها ، وهؤلاء هم خواص الأولياء .

ولا يرد على هذا وقوع ذلك من النبي ﷺ فعلاً وأمرأ ، لأنه كان في أعلى مقامات العرفان ودرجات التوكل ، وكان ذلك منه للتشريع وبيان الجواز ، ومع ذلك فلا ينقص ذلك من توكله ، لأنه كان كامل التوكل يقيناً فلا يؤثر فيه تعاطي الأسباب شيئاً ، بخلاف غيره ، ولو كان كثير التوكل ، لكن مَنْ ترك الأسباب وفوّض وأخلص في ذلك كان أرفع مقاماً .

قال الطبري : قيل : لا يستحق التوكل إلا مَنْ لم يخالط قلبه خوف من شيء ألبته ، حتى السبع الضاري والعدو العادي ، ولا من لم يسع في طلب رزق ولا في مداواة ألم ، والحق أن مَنْ وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب اتباعاً لِسُنَّتِهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ، فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم في الحرب بين درعين ، وليس على رأسه المغفر ، وأقعد

الرماة على فم الشعب ، وخذقَ حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطي أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال الذى سأل : أعقل ناقتى أو أدعها ؟ قال : « اعقلها وتوكل » ، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل ، والله أعلم . « (١) » .

* * *

(١) فتح البارى : ٢١١/١٠ - ٢١٢

(٣)

الكهانة وأحكامها

الكهانة

● معنى الكهانة :

الكهانة - كما يذكر الحافظ في الفتح - ادعاء علم الغيب - كالأخبار بما سيقع في الأرض ..

والأصل فيه : استراق الجنى السمع من كلام الملائكة ، فيلقيه في أذن الكاهن .

والكاهن : يُطلق على العرَّاف ، والذي يضرب بالحصى ، والمنجِّم ، ويُطلق على مَنْ يقوم بأمر آخر ويسعى في قضاء حوائجه .

وقال في « المحكم » : الكاهن : القاضى بالغيب .

وقال في « الجامع » : العرب تسمى كل مَنْ أذن بشيء قبل وقوعه كاهناً .

وقال الخطابي : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين ، لما بينهم من التناسب في هذه الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه .

وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية ، خصوصاً في العرب ، لانقطاع النبوة فيهم ، وهي على أصناف :

منها : ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى ، بحيث يسمع الكلام ، فيلقيه إلى الذي يليه ، إلى أن يتلقاه مَنْ يلقيه في أذن الكاهن ، فيزيد فيه فلما جاء الإسلام ، ونزل القرآن ، حُرِّست السماء من الشياطين ، وأُرسِلت عليهم الشُّهْب ، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ

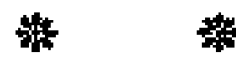
فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١﴾ ، وكانت إصابة الكُهَّان قبل الإسلام كثيرة جداً ، كما جاء في أخبار « شق » و « سطيح » ونحوهما ، وأما في الإسلام فنذر ذلك جداً ، حتى كاد يضمحل ، والله الحمد .

ثانيها : ما يُخبر الجنى به مَنْ يواليه ، بما غاب عن غيره ، بما لا يطلع عليه الإنسان غالباً ، أو يطلع عليه مَنْ قَرُبَ منه لا مَنْ بَعُدَ .

ثالثها : ما يستند إلى ظن وتخمين و حَدْس ، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة ، مع كثرة الكذب فيه .

رابعها : ما يستند إلى التجربة والعادة ، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر .

وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطَّرْق والنجوم ، وكل ذلك مذموم شرعاً (٢) .



● الرسول يعلن الحرب على الكهانة والكُهَّان :

وقد روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمي قال : قلت : يا رسول الله ؛ أمور كنا نصنعها في الجاهلية : كنا نأتى الكُهَّان ! قال : « لا تأتوا الكُهَّان » (٣) .

وروى الشيخان عن عائشة - واللفظ للبخارى - قالت : سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان ، فقال : « ليس بشيء » - أو « ليسوا بشيء » - فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً ! فقال

(٢) انظر فتح البارى : ٢١٦/١٠ ، ٢١٧

(١) الصافات : ١٠

(٣) صحيح مسلم ، حديث (٥٣٧) .

رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق ، يخطفها الجنى ، فيقرها في أذن وليه ، فيخلطون معها مائة كذبة » (١) .

ومعنى قوله : « ليسوا بشيء » : أى ليس قولهم بشيء يُعتمد عليه ، قال القرطبي : كانوا فى الجاهلية يترافعون إلى الكهان فى الوقائع والأحكام ، ويرجعون إلى أقوالهم ، وقد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية ، لكن بقى فى الوجود من يتشبه بهم ، وثبت النهى عن إتيانهم ، فلا يحل إتيانهم ولا تصديقهم (٢) .



● النهى عن حلوان الكاهن :

كما نهى النبى ﷺ عن « حلوان الكاهن » ، وهو ما يُعطاه من أجر أو مكافأة ، وشبه بالشىء الحلو ، من حيث أخذه حلواً سهلاً بلا كلفة ولا مشقة . وقد روى الشيخان عن أبى مسعود الأنصارى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن (٣) .

فلا يجوز إعطاؤهم شيئاً مقابل تكةنهم ، كما لا يجوز لهم أخذه ، لأنه كسب مُحَرَّم ، وأجر على عمل محظور وضار .



● الكهانة كفر بما أنزل على محمد :

وروى أحمد وأصحاب السنن عن أبى هريرة مرفوعاً : « مَنْ أتى كاهناً ، فصدَّقه بما يقوله ، أو أتى امرأة حائضاً ، أو أتى امرأة فى دُبُرِها ، فقد برىء مما أنزل على محمد » (٤) .

(١) صحيح البخارى مع الفتح : ٢١٦/١٠ ، حديث (٥٧٦٢) ، ومسلم ، حديث (٢٢٢٨) .

(٢) الفتح : ٢١٩/١٠ (٣) اللؤلؤ والمرجان - حديث (١٠١٠) .

(٤) رواه أحمد : ٤٠٨/٤ ، ٤٧٦ ، وأبو داود فى الطب (٣٩٠٤) ، والترمذى فى الطهارة (١٣٥) ، وابن ماجه فى الطهارة (٦٣٩) ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً . وذكره فى صحيح الجامع الصغير منسوبا إليهم (٥٩٤٢) .

وروى أحمد والحاكم عنه مرفوعاً أيضاً : « مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » (١) .

وروى أحمد ومسلم عن بعض أمهات المؤمنين ، وسماها بعض الرواة : « حَفْصَةُ » : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » (٢) .

وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَكْبَرَ مِنْ عَدَمِ قَبُولِ الصَّلَاةِ ، وَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ ، وَالصَّلَاةِ الْيَوْمِيَّةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ؟

وعن ابن مسعود موقوفاً : « مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ سَاحِرًا أَوْ كَاهِناً ، فَسَأَلَهُ ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » (٢) .

ومثل هذا لَا يُقَالُ بالرأى ، فهو في حكم المرفوع المروى من قبل عن أبى هريرة ، وهو وعيد مخيف لمن يذهب إلى هؤلاء الدجَّالين ، فإن كان يعتقد أنهم فعلاً يعلمون الغيب ، ويخترقون حُجُبَهُ ، فقد دخل في الكفر الأكبر الصريح ، المخالف مخالفة قطعية للقرآن والسُّنة ، وإلا فقد وقع في كبيرة من الكبائر التي تجر إلى الكفر والعياذ بالله .

وإذا كان هذا شأن مَنْ أَتَاهُمْ وَسَلَّاهُمْ وَصَدَّقَهُمْ ، فما بالك بأمر هؤلاء أنفسهم ؟ وما موقفهم من الإسلام ؟ وما موقف الإسلام منهم ؟!

روى البزار عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه أحمد : ٤٢٩/٤ ، والحاكم في الإيمان ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي : ٧/١ ، ٨ .

(٢) رواه مسلم في كتاب السلام ، حديث (٢٢٣٠) ، ورواه أحمد : ٣٨٠/٥ .

(٣) قال المنذرى : رواه البزار وأبو يعلى وجوّد إسناده في الترغيب . انظر كتابنا (المنتقى : ١٨٥٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (١١٨/٥) : رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا هيرة بن يريم ، وهو ثقة .

« ليس منا مَنْ تطير ، أو تُطِير له ، أو تكهن ، أو تُكهن له ، أو سحر ، أو سُحِر له ، ومَنْ أتى كاهناً فصدقه بما يقول كفر بما أنزل على محمد ﷺ » (١) .

ورواه الطبراني من حديث ابن عباس دون قوله : « ومَنْ أتى ... إلى آخره » بإسناد حسن ، كما قال المنذرى فى الترغيب والترهيب .

وروى البزار كذلك عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « مَنْ أتى كاهناً فصدقه بما قال ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » (٢) .

وروى الطبراني عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن ينال الدرجات العلى مَنْ تكهن ، أو استقسم ، أو رجع من سفره تطيراً » (٣) .

ومعنى « استقسم » : أى استقسم بالأزلام ونحوها ، وفى القرآن : ﴿ وَتَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (٤) .

والتطير : التشاؤم ، وهو شئ لا يبنى على منطق ولا قاعدة ، كالذين يتشاءمون ببعض الأرقام مثل رقم (١٣) ، أو بعض الأيام ، أو بغير ذلك .

(١) رواه البزار ، وجود إسناده المنذرى فى الترغيب والترهيب (انظر المتقى : ١٨٥٣) . وقال الهيثمى : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة : (١١٧/٥) ، وفى إسناده كلام ذكره الألبانى فى غاية المرام ، لكنه ارتقى بالحديث إلى الحسن بحديث ابن عباس المذكور .

(٢) قال المنذرى : رواه البزار بإسناد جيد قوى (المتقى : ١٨٥٤) ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح ، خلا عقبة بن سنان وهو ضعيف (١١٧/٥) ، وتعقبه الألبانى فى غاية المرام ، وانتهى إلى أن الحديث فى متنه صحيح ، فقد جاء من ثلاث طرق عن أبى هريرة خرَّجها فى الإرواء .

(٣) قال المنذرى : رواه الطبراني بإسنادين رواة أحدهما ثقات ، وكذا قال الهيثمى (١١٨/٥) وجود إسناده الألبانى فى غاية المرام برقم (٢٨٦) . (٤) المائة : ٣

وعن قَطَن بن قبيصة عن أبيه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العيافة والطيرة والطَّرُق من الجِبْتِ » (١) .

قال أبو داود : الطَّرُق : الزجر ، والعيافة : الخط (يعنى الخط بالرمل) .
وقال ابن فارس : الطَّرُق : الضرب بالحصى ، وهو جنس من التكهن .
وقال لبيد :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع !
و« الجِبْتُ » - بكسر الجيم - : كل ما عُبدَ من دون الله تعالى ، وقيل :
كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك .

* *

● لماذا كانت الكهانة كفراً بما أنزل على محمد ؟

وذلك أن من المقرر فيما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ : أن الغيب مما
استأثر الله تعالى بعلمه ، فلا يعلمه إلا هو سبحانه ، ومن ارتضى من رسول
يعلمه منه بما يشاء وفق الحكمة الإلهية .

يقول تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٢) .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٣) .

وقال لرسوله : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ

(١) رواه أبو داود فى الطب (٣٩٠٧) ، ورواه أحمد أيضاً : ٤٧٧/٣ ، والنسائى فى
التفسير كما فى التحفة : ٢٧٥/٨ ، والطبرانى : ٩٤١/١٨ - ٩٤٣ ، وابن حبان
(الإحسان : ٦١٣١) ، والبيهقى : ١٣٩/٨ ، وفى سنده حبان بن المخارق أبو العلاء ،
ويقال : ابن العلاء لم يوثقه غير ابن حبان .

(٣) الانعام : ٥٩

(٢) النمل : ٦٥

كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ ، إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

وقال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ
رَسُولٍ ﴿٢﴾ .

وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها
إلا الله تعالى : لا يعلم أحد ما يكون في غدٍّ إلا الله تعالى ، ولا يعلم أحد
ما يكون في الأرحام إلا الله تعالى ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى ،
ولا تدري نفس بأى أرض تموت إلا الله تعالى ، ولا يدري أحد متى يجيء
المطر إلا الله تعالى » (٣) .

وفي رواية عنه : « أُوتِيَتْ مَفَاتِيحُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخَمْسَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ
غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

وعن بريدة مرفوعاً : « خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ ... ﴾ إلى آخر الآية الأخيرة من سورة لقمان (٥) .

وقد صح من حديث جبريل المشهور : أن جبريل سأل النبي ﷺ عن
الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكني سأخبرك
بأشراطها » .

(٢) الجن : ٢٦ - ٢٧

(١) الأعراف : ١٨٨

(٣) رواه أحمد والبخاري ، كما في صحيح الجامع الصغير (٥٨٨٤) .

(٤) رواه أحمد : ٨٥ / ٢ ، ٨٦ ، - والآية ختمت بها سورة لقمان : ٣٤

(٥) رواه أحمد والرويانى عن بريدة ، كما في صحيح الجامع الصغير (٣٢٥٥) .

وفى رواية أبى هريرة فى « الصحيحين » : « فى خمس لا يعلمهن الله »
..... ثم تلا رسول الله ﷺ الآية (١) .

وكل هذه النصوص تؤكد أن الغيب لا يعلمه إلا الله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (٢) .

* *

● تنبيهات مهمة :

وأود أن أنبه هنا على بعض الأمور التى قد تشتبه على بعض الناس .

من ذلك : ما تذكره هيئات الأرصاد الجوية من احتمالات هبوب الرياح ،
وسقوط الأمطار ، ودرجات الحرارة والبرودة والرطوبة ، والمد والجزر ، وما
يتعلق بذلك من الأمور ، فهذه لا تدخل فى الغيب ؛ لأنها مبنية على أشياء
مُشَاهَدَة ، من وجود مرتفعات أو منخفضات جوية قادمة من الشمال أو من
الجنوب ، أو من الشرق أو من الغرب ، وتترتب عليها آثارها وفق سنن الله
تبارك وتعالى ، فما يذكره الراصدون هنا ليس من الغيب الذى استأثر الله
بعلمه ، بل من المُشَاهَدَات التى جعل الله علمها لخلقه من البشر .

على أن الأولى بالراصد المؤمن فى هذا المقام أن يذكر فى كلامه بعض
الكلمات المفيدة مثل : « إن شاء الله » ، أو يقول فى النهاية : « هذا والعلم
عند الله تعالى » .

ومن الأمور التى تذكر هنا : أن بعض الناس - ومنهم بعض المفسرين
القدامى - فهم من قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ (٣) أن المراد بهذا
العلم : أن يعلم أذكر ما فى الرحم أم أنثى ؟ هذا مع أن الطب المعاصر ،
أصبح يعلم اليوم بواسطة الآلات والأجهزة إن كان الجنين ذكراً أو أنثى ، ومن

(١) رواه البخارى (٥٠) و(٤٧٧) ، ومسلم (٩) .

(٢) لقمان : ٣٤

(٣) الرعد : ٩

وقت مبكر من الحمل . ونحن نقول : إن التفسير المذكور ليس بصحيح ولا ملزم لنا ، فإن كلمة : « ما » في قوله تعالى : ﴿ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ من ألفاظ العموم ، فهي تشمل الذكورة والأنوثة ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والذكاء والغباء ، والسعادة والشقاء ، والحياة والموت . . إلى آخر هذه الأمور الكثيرة المتشعبة ، التي لا يعلمها كلها إلا الله سبحانه .

فإن كان الطبيب يعلم ذكورة الجنين وأنوثته ، فإنه لا يعلم هل يكتمل نموه في بطن أمه أو لا ؟ هل ينزل حياً أو ميتاً ؟ هل يحيا فقيراً أو غنياً ؟ سعيداً أو شقيماً ؟ يتيماً محروماً من أبويه أو أحدهما ، أو يعيش سعيداً بهما ؟ إلخ ، فهذا ما يعلمه الله وحده .



● التحذير من السحر والسحرة :

والإسلام كما حذر من الكهنة ومدعى علم الغيب من ضاربي الرمل والودع والمنجمين وأمثالهم ، حذر كذلك من السحر والسحرة ، وكاد القرآن يعتبر السحر كفراً ، وذلك في قصة هاروت وماروت : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَانَ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وفي الحديث المتفق عليه : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله تعالى ، والسحر ، وقتل النفس (٢) التي حرم الله إلا بالحق . . » فقدم السحر على القتل .

(١) البقرة : ١٠٢

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٥٦) .

وروى أحمد وأبو يعلى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن أبى موسى
أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومُصدِّقٌ
بالسحر » (١) .

وقد تقدّم حديث عمران بن حصين وفيه براءة الرسول ممن سحر أو سُحر
له ، وحديث ابن مسعود فيمن أتى عرافاً أو ساحراً . . .

وروى البخارى عن بجاله بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن
اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر .

وصح عن أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها : أنها قتلت ساحرة سحرتها .



● التنجيم ضرب من السحر والكهانة :

والتنجيم : ضرب من الكهانة أو السحر ، وهو علم يزعم أصحابه ربط
حوادث الأرض بنجوم السماء ، ويدّعون أنه سبحدث كذا فى سنة كذا ، من
البلاء والغلاء ، والموت ، وقد عرف الناس كذبهم من قديم ، وقالوا فيهم :
« كذب المتجمون ولو صدقوا » .

وفى الحديث اعتبار علم النجوم هذا شُعبة من السحر .

(١) رواه أحمد : ٣٩٩/٤ ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧٤/٥) : رواه أحمد
وأبو يعلى ورجالهما ثقات ، وهو فى الإحسان (٥٣٤٦) ، ورواه الحاكم ، وصححه
ووافقه الذهبى : ١٤٦/٤ ، وفى سنده أبو حريز مختلف فيه ، وقال الحافظ فى التقریب :
صدوق يخطئ ، وله شاهد عن أبى سعيد الخدرى عند أحمد : ١٤/٣ ، عن عطية
العوفى - وهو ضعيف - يمكن أن يتقوى به ويحسن ، وحسنه الألبانى فى غاية المرام .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ اقْتَبَسَ علماً من النجوم اقْتَبَسَ شُعبَةً من السحر ، زاد ما زاد » (١) .

قال الخطابي : علم النجوم المنهى عنه : هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى لم تقع وستقع فى مستقبل الزمان ، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح ، ومجىء المطر ، وظهور الحر والبرد ، وتغير الأسعار ، وما كان فى معانيها من الأمور ، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها ، وباجتماعها واقتترانها ، ويدّعون لها تأثيراً فى السفليات ، وأنها تتصرف على أحكامها ، وتجرى على قضايا موجباتها .

وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلم استأثر الله سبحانه به ، لا يعلم الغيب أحد سواه .

فأما علم النجوم الذى يُدرك من طريق المشاهدة والحس ، كالذى يُعرف به الزوال ، ويعلم به من جهة القبلة ، فإنه غير داخل فيما نهى عنه .

وذلك : أن معرفة رَصْدِ الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعدُ صاعدةً نحو وسط السماء من الأفق الشرقى ، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى .

وهذا علم يصح درّكه من جهة المشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده .

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة : فإنما هى كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ، ويشاهدوها فى حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم : الدلالة عنها

(١) رواه أبو داود فى الطب (٣٩٠٥) ، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٢٦) ، وأحمد فى المسند (٢٠٠٠) ، وقال الشيخ شاکر : إسناده صحيح ، وقد صحّحه النووى فى رياض الصالحين ، والذهبي فى الكبائر ، كما فى الفيض : ٨٠ / ٦ .

بالمعاينة ، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم ، إذ كانوا غير متهمين في دينهم ،
ولا مُقصرين في معرفتهم (١) .

وبهذا نتبين أن « علم النجوم » المذموم أو « علم التنجيم » هو غير « علم
الفلك » الذي نبغ فيه المسلمون من قديم ، وكان لهم فيه علماء راسخون ،
والذي ارتقى في عصرنا ارتقاءً كبيراً ، حتى استطاع الإنسان بواسطته أن يصل
إلى القمر ، ويحاول غزو الكواكب الأخرى .

* * *

● علماء الإسلام مجمعون على حرب الكهانة والسحر :

لا مكان في الإسلام إذن لمنجم ولا ساحر ولا كاهن ولا عرّاف . وهذا
بإجماع أئمة الإسلام في سائر الأعصار ، كما ترى ذلك في شروحاتهم
للأحاديث التي جاءت في ذم الكهانة والكهّان ، والعرافة والعرّافين .
قال البغوي : العرّاف : الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على
المسروق ومكان الضالة ، ونحو ذلك .

وقيل : هو الكاهن ، والكاهن : هو الذي يخبر عن المغيبات في
المستقبل . وقيل : الذي يُخبر عما في الضمير .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن العرّاف اسم للكاهن
والمنجم والرّمّال ونحوهم ، كالحارر الذي يدّعي علم الغيب ، أو يدّعي
الكشف .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم العرّاف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من
العلماء ، وحكى ذلك عن العرب ، وعند آخرين : هو من جنس الكاهن ،
وأسوأ حالاً منه ، فيلحق به من جهة المعنى .

(١) من معالم السنن : ٣٧١/٥ ، ٣٧٢ ، مع مختصر المنذرى ، وتهذيب ابن القيم
للسنن .

وقال الإمام أحمد : العرافة : طَرَف من السحر ، والساحر أَخْبِث .
وقال ابن الأثير : العرَّاف : المنجِّم ، والحازر : الذى يدَّعى علم الغيب ،
وقد استأثر الله تعالى به .
وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : مَنْ اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه
عائفاً ، وعرافاً .

والمقصود من هذا : معرفة أَنَّ مَنْ يدَّعى معرفة علم شىء من المغيبات ،
فهو إما داخل فى اسم الكاهن ، وإما مشارك له فى المعنى فيُلحق به ، وذلك
أن إصابة المخير ببعض الأمور الغائبة فى بعض الأحيان يكون بالكشف ، ومنه
ما هو من الشياطين ، ويكون بالفال والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط
فى الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ،
ونعنى بالجاهلية كل مَنْ ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كالفلاسفة
والكُهَّان والمنجِّمين ، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبى ﷺ ، فإن
هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم ،
وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو فى معناهما ، فمن اتاهم
فصدَّقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام ، فادَّعوا
بها علم الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وادَّعوا أنهم أولياء ، وأنَّ ذلك
كرامة .

ولا ريب أن مَنْ ادَّعى الولاية ، واستدل بإخباره ببعض المغيبات ، فهو من
أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ؛ إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده
المؤمن التقي : إما بدعاء ، أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها ، ولا قدرة
له عليها ، بخلاف مَنْ يدَّعى أنه ولى ويقول للناس : اعلّموا أنى أعلم
المغيبات ، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وإن كانت أسباباً
مُحرَّمة كاذبة فى الغالب .

ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكُهان : « فيكذبون معها مائة كذبة » ،
فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة ، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان
ممن يدعى الولاية والعلم بما في ضمائر الناس ، مع أن نفس دعواه دليل على
كذبه ؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله تعالى : ﴿ فَلَا
تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) ، وليس هذا من شأن الأولياء ، فإن شأنهم الإبراء على
نفوسهم وعبئهم لها ، وخوفهم من ربهم ، فكيف يأتون الناس ويقولون :
اعرفوا أننا أولياء ، وأنا نعلم الغيب ؟ وفي ضمن ذلك طلب المتزلة في قلوب
الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور .

وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، وهم سادات الأولياء ،
أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء ؟ لا والله ، بل كان
أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصديق رضي الله عنه ،
وكان عمر رضي الله عنه يُسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته ،
وكان يمرّ بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه ، وكان تميم
الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ، ثم يقوم
إلى صلاته ، ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في
سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور (٢) ، فالمتصفون بتلك الصفات

(١) النجم : ٣٢

(٢) قوله تعالى في سورة الرعد (١٩ ، ٢٠) ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٔٓؤَا الْأَبَابِ ﴾
الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿ (الآيات إلى ٢٤) ، وقوله :
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بِهِ ﴿ (الرعد : ٢٨ - ٢٩) ، وقوله : ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ (المؤمنون : ٥٧ - ٦١) ، وقوله :
﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا =

هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اجتمع به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدعى ذلك ولياً لله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ، ولبسوا بها على خفافيش القلوب . نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة (١) اهـ .

وبهذا اتفق علماء الإسلام على مطاردة الكهانة والعرافة والتنجيم والعيافة وكل فنون السحر والشعوذة والتدجيل على عباد الله ، واعتبار ذلك مما يضاد الإيمان بالله تعالى ، ويعارض الإسلام الذي يحترم سنن الله في خلقه ، ونظام الأسباب والمسببات ، ويقدر العقل العلمي القائم على المشاهدة والتجربة في الحسيات والماديات ، وعلى البرهان في العقليات ، وعلى التوثيق في النقلات . كما قال تعالى : ﴿ نَبِّؤُنِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (٣) ، ﴿ إِيْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) ، وقد تكررت في القرآن الكريم .

ونختتم هذا الفصل بدعاء أبي الأنبياء خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ . (إبراهيم : ٣٨) .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ . (إبراهيم : ٤٠ ، ٤١)

* * *

= سلاماً ﴿ (الفرقان : ٦٣ - ٧٦) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ... ﴾ (الناريات : ١٥ - ١٩) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ... ﴾ (الطور : ١٧ - ٢٨) . هذا وفي القرآن الكريم من صفات المؤمنين كثير جداً ، بل أكثر آي القرآن في وصف الإيمان وأهله ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(١) انظر فتح المجيد ص ٢٩٨ - ٣٠٠ (٢) الأنعام : ١٤٣

(٣) الأنعام : ١٤٨ (٤) الأحقاف : ٤ (٥) البقرة : ١١١

محتويات الكتاب

الصفحة

٥ من الدستور الإلهي
٧ المقدمة
	الأصل الثالث : موقف الإسلام من الإلهام والكشف
	والرؤى ، وهل يؤخذ منها حكم شرعى ؟
	(٩ - ١٣٤)
١١ موقع الإلهام والكشف والرؤى من الدين
١١ حقائق ثلاث يتضمنها هذا الأصل
١٢ أثر الإيمان والعبادة والمجاهدة فى النفس
١٤ الإلهام هل هو حُجَّة فى الأحكام الشرعية ؟
١٤ ما الإلهام ؟
١٨ الإلهام والتحديث
١٩ الإلهام والفراسة
٢٠ مواقف العلماء من الإلهام
٢١ موقف النفاة المنكرين للإلهام
٢٣ المغالون فى إثبات الإلهام وحجته واعتباره
٢٣ الإلهام ليس بحُجَّة شرعية
٢٤ موقف الربانيين المعتدلين من علماء السُّنَّة
٢٨ تحرير موضع النزاع
٢٩ إلهام الأنبياء وحى
٢٩ أثر التقوى والمجاهدة فى الهداية والإلهام

٣١	ابن تيمية لا ينكر الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى
٣٦	شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا
٣٨	فى هذه الأمور يتحدد النزاع
٤٠	١ - دعوى حجية الإلهام فى الأحكام الشرعية
٤٠	حجج المحققين من أهل السُّنة
٤٢	شبهات القائلين بحجية الإلهام فى الأحكام الشرعية
٤٣	الرد على هذه الشبهات
٤٥	حديث : « استفت قلبك وإن أفثاك المفتون »
٤٩	حديث : « لقد كان فيمن قبلكم مُحدثون »
٥٤	قياس الإلهام على الرؤيا الصادقة
٥٥	قصة الخضر مع موسى
٥٩	شهادة القلب فى التحرى
٦٠	٢ - ادعاء العصمة لما جاء عن طريق الكشف والإلهام
٦٣	لا عصمة لغير الكتاب والسُّنة
٦٥	نتائج الإلهام غير ثابتة ولا مطردة
٦٧	٣ - ضلالة ارداء العلم الشرعى
٧٠	الصوفية الأولون ملتزمون باتباع الشريعة
٧٢	العلم اللدنى
٧٥	٤ - التفرقة بين الشريعة والحقيقة
٧٦	قصة موسى والخضر
٧٩	كلام الألوسى

٨١ من كلمات « السرهندي » مجدد الألف الثاني
٨٤ من كلمات كبار الصوفية
٨٧ موقف الكاملين في الشريعة
٥	- اعتبار الصوفية الكشف هو غاية الغايات واتخاذهم إليه
٩١ طرقاً غير شرعية
٩١ موقف الإمام الغزالي من الكشف والإلهام
٩٦ شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف
١٠٢ وقفة مع الإمام الغزالي
١٠٣ إمكان الكشف ووقوعه متفق عليه
١٠٤ أدلة الغزالي لا تثبت دعواه

الرؤى وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟ (١١٣ - ١٣٤)

١١٥ تمهيد
١١٦ رؤيا الأنبياء وحي
١١٦ أنواع الرؤيا كما فصلتها السُّنَّة
١١٧ حقيقة الرؤيا وصلتها بعالم الغيب
١٢١ الرؤى مجرد مبشرات أو منبهات
١٢٢ الرؤيا ليست حجة شرعية
١٢٦ رؤيا النبي ﷺ لا يثبت بها حكم شرعي
١٣٠ تحقيق الإمام الشاطبي في موضوع الرؤيا
١٣٢ تأويل حديث : « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى حَقًّا »

**الأصل الرابع : فى حماية التوحيد ورعاية السنن والأسباب
وبيان موقف الإسلام من التماائم والرقى والكهانة
(١٣٥ - ١٩٩)**

الصفحة	
١٣٧	الأصل الرابع من الأصول العشرين
١٣٩	١ - التماائم وأحكامها
١٤١	معنى التماائم
١٤١	التماائم شرك
١٤٦	كراهة التماائم ولو كانت من القرآن
١٤٦	من يرى جواز التماائم إذا كانت من القرآن
١٤٧	موقف المسلم من هذه القضية
١٤٩	٢ - الرقى وأحكامها
١٥٣	الرقية كالدواء من قَدَّر الله تعالى
١٥٤	الرقية والطب الجسمانى
١٥٧	نفع الأدوية الإلهية
١٥٨	أفضل الرقى
١٥٩	الصيغ النبوية للرقى
١٦٠	رقية المريض بالمعوذات والنفث
١٦٢	الرقية بفاتحة الكتاب
١٦٣	من فقه الحديث
١٦٤	عظمة الفاتحة
١٦٥	من أى شىء تكون الرقية ؟

١٦٨ لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك
١٦٩ كلام آين القيم فى تأثير العين والرُقْية منها
١٧٦ مَنْ يرقى ؟
١٧٧ الرقى المكتوبة
١٧٨ الرد على مَنْ كره الرقى بإطلاق
١٨٣ ٣ - الكهانة وأحكامها
١٨٥ معنى الكهانة
١٨٦ الرسول يعلن الحرب على الكهانة والكهان
١٨٧ النهى عن حلوان الكاهن
١٨٧ الكهانة كفر بما أنزل على محمد
١٩٠ لماذا كانت الكهانة كفراً بما أنزل على محمد ؟
١٩٢ تنبيهات مهمة
١٩٣ التحذير من السحر والسحرة
١٩٤ التنجيم ضرب من السحر والكهانة
١٩٦ علماء الإسلام مجمعون على حرب الكهانة والسحر
٢٠٠ محتويات الكتاب



كتب للمؤلف

- ١ - الحلال والحرام في الإسلام .
- ٢ - الإيمان والحياة .
- ٣ - الخصائص العامة للإسلام .
- ٤ - العبادة في الإسلام .
- ٥ - ثقافة الداعية .
- ٦ - فقه الزكاة (جزآن) .
- * سلسلة حتمية الحل الإسلامي :
- ٧ - « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » .
- ٨ - « الحل الإسلامي .. فريضة وضرورة » .
- ٩ - « بينات الحل الإسلامي .. وشبهات العلمانيين والمتغربين » .
- ١٠ - « أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة » .
- ١١ - مشكلة الفقر ، وكيف عالجها الإسلام .
- ١٢ - بيع المرابحة للأمر بالشراء .. كما تجر به المصارف الإسلامية .
- ١٣ - الصبر في القرآن .
- ١٤ - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .
- ١٥ - التربية الإسلامية ، ومدرسة حسن البنا .
- ١٦ - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد .
- ١٧ - جيل النصر المنشود .
- ١٨ - وجود الله .
- ١٩ - حقيقة التوحيد .
- ٢٠ - نساء مؤمنات .
- ٢١ - ظاهرة الغلو في التكفير .
- ٢٢ - الناس والحق .
- ٢٣ - درس النكبة الثانية .
- ٢٤ - عالم وطاغية .
- ٢٥ - مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
- ٢٦ - الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
- ٢٧ - عوامل السعة والحرارة في الشريعة الإسلامية .
- ٢٨ - الوقت في حياة المسلم .
- ٢٩ - أين الخلل ؟
- ٣٠ - الرسول والعلم .
- ٣١ - نفحات ولفحات « ديوان شعر » .
- ٣٢ - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه .
- ٣٣ - فتاوى معاصرة (جزآن) .
- ٣٤ - شريعة الإسلام .
- ٣٥ - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
- ٣٦ - قضايا معاصرة على بساط البحث .
- ٣٧ - الاجتهاد في الشريعة الإسلامية .
- ٣٨ - المتقى من الترغيب والترهيب (جزآن) .
- ٣٩ - الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي .
- ٤٠ - الفتوى بين الانضباط والتسيب .
- ٤١ - من أجل صحوة راشدة .
- ٤٢ - الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .
- ٤٣ - الدين في عصر العلم .
- ٤٤ - فوائد البنوك هي الربا الحرام .
- ٤٥ - كيف نتعامل مع السنة .
- ٤٦ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفريق المذموم .
- ٤٧ - تيسير الفقه .. فقه الصيام .
- ٤٨ - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام .
- ٤٩ - المدخل لدراسة السنة النبوية .
- * سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :
- ٥٠ - (١) شعول الإسلام .
- ٥١ - (٢) المرجعية العليا في الإسلام .
- ٥٢ - (٣) موقف الإسلام من الإلهام والكشف .
- ٥٣ - يوسف الصديق « مسرحية شعرية » .
- ٥٤ - قطوف دائية من الكتاب والسنة .
- ٥٥ - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
- ٥٦ - المسلمون قادمون « ديوان شعر » .
- ٥٧ - محاضرات الدكتور القرضاوي .
- ٥٨ - دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي

To: www.al-mostafa.com